الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العــدد ٤٥ – ١٤ مايو سنة ١٩٣٤ – السنة الثانية

2 me Année, No 45.

Lundi-14-5-1934

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الاقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم (٤٢٣٩٠
٤٠٥٣٠)

السنة الثانية «القاهرة في يوم الاثنين أول صفر سنة ١٣٥٣ — ١٤ مايو سنة ١٩٣٤» العدد ٤٥

فهرس العدد

صفحة

قطع العقدة أسهل من حلها

كان الموروث غفر الله له مهلوس العصب ، أرعن اليد ، ألكن اللسان ، أخرق السياسة ، فابتلاه الله بالحرب حتى قلّ ، وبالدَّين حتى ذلّ ، وبالرشوة حتى فشل . ثم عصفت به ريح المنون فحطمت جذعه وأذرت هشيمه ، وتبدد في مهب العوادي تراثه المشتهى ، واستقرت على أعناق أبنائه وأوليائه أثقاله وأغلاله وديونه .

فاما الترك الخلّص البواسل فبتروا من خلفهم ذلك الذيل الطويل ، ثم انطلقوا خفافا الى المجد وراء كمال ، وأما العرب الاقحاح الميامين فألقوا من فوقهم ذلك الحمل الثقيل ، ثم مضوا سراعا الى الملك وراء فيصل ، وأما نحن - وقرابتنا الى المرحوم وما ترك قرابة كَلالة - فقد نالنا من عهوده الجزية ، ومن قيوده الامتيازات ، ورأينا في نصوص القوانين ما يثبت القلوب المنخوبة على الحق ، وفي سوابق الدول ما يشجع النفوس الهيوبة على الاقدام ، وفي سوانح الفرص ما يذكّر الرقاب المغلولة بالعتق ، ولكن الشعب الذي قسا عليه القدر

فمحا من ذهنه الفروق بين التواضع والضعة ، وبين الوداعة والذل ، وبين المجاملة والملق ، وبين الكرامة والتساهل ، وبين الضيافة والاحتلال ، لا يستطيع أن يفهم من القانون الا نص الواجب ، ولا من (السابقة) الا معنى الجرأة ، ولا من الفرصة الا خلاف الحزم .

* * *

حررت الأمم رقاب العبيد ، واحترم السادة ارادة الخدم ، ومنحت الدول طغام الشعوب كرامة الوطن ، وبرىء الأسود والأبيض من معرة التفريق ووصمة التميز ، اللهم إلا نحن فى مصر ، وإلا الزنوج فى امريكا !

وما الفرق بالله بين الزنجى والمصرى اذا كان كلاهما قد حرم الاخاء فى المجتمع ، والمساواة فى القانون ، والحرية فى الموطن ؟ وهل الامتيازات الاحكم قائم بانحطاطنا عن الأمم التى ميزناها فى الجنسية والعقلية والمدنية والتربية ؟ فالأورپى اذا اعتقد انك دونه فى القدر والحق والخلق فتمزّى عليك واتقى منك ، كان واضح العذر ما دمت تعترف بهذا النظام الذى يجعل قضاءه أعلى من قضائك ، ولغته أفضل من لغتك ، وشأنه ارفع من شأنك

أنه يعرف أن لك على الأقل أن تلغى المحاكم المختلطة من ذات نفسك ، فلا ترى بعدها من يظلم قضاتك على منصة العدل ، ويحتقر لغتك تحت راية الدولة ، ويهين رجالك فى دست الحكومة ، ولكنه يراك تهمل حقك حتى يموت ، وتغفل واجبك حتى يفوت ، وتنفق من كرامتك على المجاملة واللطف حتى تنفد ، فجعل نزولك عن مقامه تقليدا لا ينهض فى وجهه أدب ، وعرفا لا يقوم بسبيله قانون

* * *

ان الامتيازات الاجنبية شر ما مُنيت به هذه الأمة من علل الفساد وأسباب الوهن . فان وجودها يوهم الأوربى انه فاضل بالحق ، ويشعر المصرى انه مفضول بالطبيعة ، فيمعن هذا فى هضم نفسه وبذل مقادته ، بمقدار ما يمعن ذلك فى تصعير خده وتجاوز حده ، ويجرى الأمر بين الرجلين مجرى الطبع والعادة ، فلا يندم الأول على إساءة ، ولا يألم الثانى من غضاضة !

وما تجره على الأمة هذه الآفة من قتل الرجولة فى النفوس ، وكسر النخوة فى الرءوس ، لا يدفعه إلهاب العواطف بعظمة الآباء وحماسة الشعراء وطموح المدرسة ، فما ظنك اذا خلا التاريخ من روح الوطنية ، والشعر من ادب القومية ، والمدرسة من رفع الخلق

ان اخبث الأدواء ما خامر الجسم فسلبه القدرة على الفكر فيه بَلْهَ الخلاص منه .

ولقد جنت الامتيازات على أخلاقنا جناية العبودية على أخلاق العبيد ! فنحن نجبن امام الاهانة ، ونكذب أمام الخوف ، ونخنع أمام القوة ، ويقعد بنا اتهام الكفاية عن المنافسة ، حتى خلت ميادين العمل للاجانب فتحكموا تحكم الارباب ، وتصرفوا تصرف السادة ، وعاشوا بالشر على خير هذا البلد ، وأنضجوا شواءهم فى حريق اهله !

كل أولئك ونحن نضرع للسفيه ان يحلم ، وللخصم أن يحكم ، وللقوى أن يستكين ، ثم نحاول أن نتحاكم الى المعاهدات ، ونتفاهم بالمفاوضات ، كأنما انقلبت حملة الغرب على الشرق دعوة الى سبيل المدنية وتقدم الانسانية على هدى السلام والعدل !

كلا ياسادة ! ان علاج المسموم بالعزائم مزاح مع الداء لا تؤمن عاقبته ، وان قتل الحية اهون من ترويضها ، وان قطع العقدة أسهل من حلها ، وان المتنبى ما كان يجهل الناس حين قال :

انما أنفس الأنيس سباع يتفارسنَ جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شىء غلابا واقتسارا لم يلتمسه سؤالا

أحمد حسن الزيات

الخيـــال الطارق

للدكتور طه حسين

أقبل صاحبي وجه النهار مرتاعا حائل اللون ، شاحب الوجه ، حائر الطرف ، طائر اللب ، كأنما ألم به طائف من الجن فروعه ترويعا ، وأخرجه عن ذلك الطور الهادىء الرزين الذي كنت اعرفه منه اذا لقيته فتحدثت اليه ، واستمعت لاحاديثه المطمئنة العذبة الخصبة .

أقبل مرتاعا لا يكاد يبين اذا تحدث او هم بالحديث ، بل لا يكاد يستقر فى مجلس ، بل لا يكاد يمسك جسمه من رعدة كانت تلم به من حين الى حين فتهزه هزا عنيفا ، وتذكر بقول ذلك الشاعر القديم

وانى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

وأشهد لقد انفقت كثيرا من الجهد ، واصطنعت فنونا من الحيلة ، لارده الى ما الف فيه من دعة وأمن وهدوء ، ولقد افتقدت فى تلك الساعة بعض هؤلاء الشيوخ الذين يتلون العزائم والرقى ، بعد ان أخفقت أو كدت اخفق فيما كنت احاول من رده الى الوقار والصواب . ولكنى ظفرت آخر الامر بما كنت احاول ، واستطعت أن أتحدث الى صاحبي ، وأن اسأله عن مصدر هذا الاضطراب العنيف الذى اصابه وما عرفته عرضة لاضطراب يصيب العقل أو يصيب الجسم . قال وهو ذاهل أو كالذاهل : إثم هذا على ابى العلاء ايها الصديق ، فلولا انى نظرت فى كتاب من كتبه آخر الليل ، لأذود به هذا الأرق الذى الح على الحاحا لما أصابنى ما ترى ، بل لما أصابنى مالم تر من تلك الأهوال التى ألمت بى ، واصطلحت على حتى نفرتنى من دارى وأزعجتنى عن أهلى ، ودفعتنى اليك فى هذه الساعة التى لم أتعود أن اسعى فيها اليك . وثق بانى قد خرجت من دارى معتزما ألا أعود اليها ، وقد أمرت أهلى أن يلتمسوا لنا دارا أخرى ، وأزمعت الرحلة عن القاهرة اياما ، حتى اذا تم لهم ما اريد من التحول عن هذه الدار الموبوءة ، عدت اليهم فى دارنا الجديدة ، لعلى أن أجد فيها ما انا فى حاجة اليه من الدعة وراحة البال . قلت ما أراك الا مريضا تحمل مرضك على أبى العلاء . وتكافه من ذلك ما لم يقترف ، وتكلف أهلك من آثار هذا المرض شططا . ومع انى لم أعرف بعد هذه الأهوال التى ألمت بك فازعجتك عن دارك ودفعتك الى ما تحاول من فراق القاهرة . فلست أرى بأسا بهذا الرحيل فقد طال مقامك فى مدينتنا ، وقد احتملت من الجهـد والعناء فى عملك ما يضنى الأصحاء الأقوياء ، فكيف برجل عليل ضئيل مثلك ، فارحل مصاحبا ولكن حدثنى عما ألم بك من الهول ؟ قال مصدره رسالة الغفران ياسيدى ، فليت أبا العلاء لم يكتب رسالة الغفران ، قلت لا تقل هذا ولا تكن أثرا ، فان لغيرك فى رسالة الغفران لذة ومتاعا ، واذا كانت قد سلطت عليك الهول الذى لم أعرفه بعد ، فانها قد أتاحت لقوم آخرين فى الشرق والغرب من الشهرة وبعد الصوت ما لم يسلط عليهم هولا من الأهوال ، ولم يغربهم خطبا من الخطوب . ولكن هات حديثك . قال : ما أشك فى أن أبا العلاء كان مجنونا حين كتب هـــذه الرسالة . قلت رب جنون خير من العقل ، ولكن هات حديثك . قال : أتذكر هذا السخف الذى أغرق فيه إغراقا حين ذكر هذين البيتين القديمين من شعر النمر بن تولب :

ألم بصحبتى وهم هجوع خيال طارق من أم حصن
لها ما تشتهى عسلا مصفى اذا شاءت وحوارى بسمن

قلت هذا من خير ما فى الرسالة ، وأى بأس عليه من أن يفترض أن الشاعر قــد وضع مكان حصن فى البيت الأول اسما آخر كجزء أو حفص أو عمرو ، ثم يلائم بين هذا الاسم وبين القافية فى البيت الثانى ، فهذا نوع من العبث المباح الذى لا يسوء أحداً ، وهو مع ذلك يدرب الذاكرة ويظهر شيئا من المقدرة اللغوية التى يحرص العلماء والأدباء على اظهارها . قال أنت الذى يزعم أن هذا العبث لا يسوء أحداً ، وما رأيك فى أنه قد ساءنى وجشمنى ما رأيت وما لم تر من الاهوال والخطوب . فقد أراد سوء الحظ أن أنظر فى هذا الكتاب ، وان أقف عند هذا العبث ، فأفكر فى هذه الخيالات التى كانت تطرق المحبـين والشعراء منهم بنوع خاص ، والتى كانت اذا طرقت هؤلاء الشعراء انطقتهم بما تعرف وما لا تعرف من رائع الشعر وبارع الكلام . وأغرقت فى هذا التفكير وجعلت استعين بالذاكرة على استحضار شىء من الشعر القديم الذى قاله الشعراء فى الخيال الطارق والطيف الملم . ثم جعلت اسخر من أبى العلاء ومن جفاء طبعه وخشونة مزاجه ، وجعلت ارثى لأم حصن هذه التى عبث الشاعر بها هذا العبث

فلم يترك اسمها حيث وضعه النمر بن تولب ، وانما حذفه واخذ يضع مكانه اسماء اخرى بعدد حروف المعجم ، ولو أنه كان رقيق القلب دقيق الحس ممتاز الشعور رفيقا بالغانيات لما ازعج ام حصن عن مكانها ، ولما اقلقها عن موضعها ، ولكنه رجل غليظ لا علم له بالحب ، ولا حـظ له من الرقة ، ولا معرفة له بحسن معاشرة النساء .

واني لفي ذلك وإذا أنا احس كأن الأرض تدور تحت قدمي ، وكأن كل شيء يضطرب من حولي ، ولا أكاد التفت الى ذلك وافكر فيه حتى يهدأ من حولي كل شيء ، وإذا شخص جميل قد قام مني غير بعيد ، وهو ينظر الى نظرة عطف ، وعلى وجهه غشاء من كآبة حلوة ، وعلى ثغره ابتسامة كأنها ابتسامة الرضى ، ولكني لا أعرف شيئا أصدق منها تصويرا للحزن والاسى ، وتمثيلا للوعة والحسرة ، ولست أدرى كيف لم يرعني مقام هذا الشخص الجميل ، فلم أظهر فزعا ولا اضطرابا ، وانما انست اليه وحققت النظر فيه فتبينت فتاة غضة الشباب رائعة الجمال ، لولا أن شبابها يوشك أن يكون وهما ، ولولا ان جمالها يوشك ان يكون خيالا ، تبينت شخصا حيا متحركا نضيرا ، ولكنه على ذلك لا يخلو من شيء يشبه الموت ، ومن شيء يشبه السكون ، ومن شيء يشبه الذبول . وهو على هذا كله يذكرني بشخص كنت آلفه ويألفني ، وكنت أكبره ويكبرني ، وقد فقدته منذ حين ، فجزعت عليه جزعا شديداً ، وكثيرا ما سألت نفسي اتراها قد ذكرتني قبل أن تلج باب الموت .

واني لانظر الى هذا الشخص الماثل ، وان هذه الخواطر لتمر امام نفسي وادعة كأنها السحاب الرقيق ، واذا انا اسمع صوتا رقيقا خافتا حلوا يسعى الى سعيا خفيا من ناحية هذا الشخص الماثل غير بعيد . واذا هذا الصوت يحمل الى تحية عذبة هي التي كنت اسمعها من صديقتي حين كنت القاها وجه النهار ، وما اكثر ما كنت القاها وجه النهار . اصبح بخير ياسيدى . فأجيب اصبحى بخير ياسيـدتى . انك تعرفني أو تكاد تعرفني ، انك تذكرني وتسال نفسـك الآن كما كنت تسألها من قبل ، اذ ذكرتك حين فارقت الحياة وودعت الاحياء ، نعم ياسيدى قد ذكرتك والحجت في ذكرك ، وكلفت من يقرأ تحيتي عليك ، ولولا الحياء لكلفت من يدعوك لزيارتي قبل ان اموت ولكني لم افعل ، ولم يعرض على ذلك أحد من الذين كانوا يحيطون بسرير الموت ، على اني لست آسفة فاني لم اخسر شيئا ، لأني لم افارق احدا ممن كنت احب لقاءهم في تلك الحياة ، انما انا اراهم وأسعى بينهم وأتحدث الى نفوسهم وأسمع منها ، وكل ما فقدته انما هي هذه الاصوات التي كنت اسمعها ، وهذه الايدى التي كنت اصافحها . وثق بأنها لا تعدل شيئا حين اقيسها الى ما اسمع الآن من احاديث الضمائر ونجوى النفوس . وما كنت لأتراءى لك الآن لولا انك اغرقت في ذكر الخيال واستحضار الخيالات . ولست اخفي عليك اني كنت اريد حين تراءيت لك ان اداعبك بعض الشيء ، فلا تظن ان الدعابة مقصورة على الاحياء ، فقد يأخذ الموتى من الدعابة بنصيب ايضا . كنت اريد ان اتراءى لك على اني ام حصن صاحبة النمر بن تولب ، وان اشكر لك عطفك على ورفقك بي ولومك لابي العلاء . ولكني لم استطع ان اخدعك لأني لم اتعود خداعك اثناء الحياة . ثم لأني انما اقبلت الى هذا المكان لألقي في روعك رسالة كنت اريد ان تبلغها عني ، وكنت اريد ان القيها اليك كما تلقى الرسائل الى الناس في الاحلام ، ولكني رأيتك يقظان تنظر في هذا الكتاب فانتظرت لعل النوم ان يسعى اليك ، ثم رأيتك تذكر الخيال وتستحضر الاطياف فتراءيت لك ، وهل انا الا خيال او طيف ؟ لا تطل النظر إلى ولا تقل شيئا فان نظر الاحياء يؤذيني ، وان اصوات الاحياء تثقل على ، ولكن اسمع مني ولتحـدث نفسك الى اذا لم يكن لك بد من حديث ، واني لأعلم انك تريد ان تسألني كيف اتحدث اليك بصوت يشبه صوت الاحياء ، واشفق مع ذلك من سماع صوتك فانا لا اتحدث اليك بصوت يستطيع غيرك ان يسمعه ، انما انت الذي يمنح هذا الصوت قوته وتشخيصه ، ولو ان في هذه الغرفة قوما غيرك لما رأوا من شخصي ما ترى ، ولما سمعوا من صوتي ما تسمع ، ولكن اصغ الى فاني أحس مقدم النهار ، واني أكره هذا الضوء الذي يغمر الكون حين تشرق الشمس ، والذي كنت أحبه أشـد الحب اثناء الحياة ، والذي لم احزن على شيء حزني على فراقه قبل أن أموت ، والذي لم اتسل عن شيء كما تسليت عنه الآن .

اصغ الى فاني أريد أن القي اليك رسالتي ، وان أنصرف عنك

(البقية على صفحة ٨٤٠)

سبيل الخـــلاص
من الامتيازات الأجنبية

للدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى
الأستاذ بكلية الحقوق

— ١ —

قد لا يكون هذا الموضوع الذى أعالجه وثيق الاتصال بالموضوعات الأدبية والعلمية التى اعتاد كتاب الرسالة أن يطالعوا بها قراءها. ولكنى مع ذلك لا أتردد فى أن أرسل بمقالى هذا إلى الرسالة. فان مسالة الامتيازات الأجنبية أصبحت فى هذه الأيام من أكبر المسائل خطرا وأشدها تعقداً. والرسالة تتسع جوانبها لكل مسالة تشغل الرأى العام.

وما بى أن أعالج الامتيازات الاجنبية من نواحيها المألوفة : الامتيازات جائرة، لا يتفق أصلها التاريخى مع حقيقتها الواقعة، لا يصح أن تستسيغها امة لها حظ من الكرامة، لا يجوز التوانى عن المطالبة بالغائها، بل هى قد سقطت بتغير الظروف طبقا لمبادئ القانون الدولى المعروفة. كل هذا أصبح معروفا مستقراً فى الأذهان. وإنما يعنينى أن ألتمس سبيلا عمليا إلى التخلص من هذه الامتيازات.

وإنه ليبدو لى ضروريا أن تكون للحكومة المصرية خطـة مرسومة للتخلص من الامتيازات الأجنبية. أما ترك الأمر للظروف فليس بمنتج شيئا ولا يتفق مع ما لمسألة الامتيازات من الخطر فى حياة الأمة. وعندى أن هذه المسألة لا تقل فى الاهمية عن مسألة الاحتلال الانجليزى للبلاد. فالتخلص من الاحتلال مع بقاء الامتيازات لا يفيد كثيراً، إذ نبقى مقيدين فى أهم مقدمات السيادة الداخلية للدولة : التشريع والقضاء والادارة. فلا يصح إذن فى مسألة لها هذه الاهمية أن نترك أنفسنا تسوقنا المصادفات وتسيطر علينا الحوادث. ولقد شاءت المصادفة أن يتنحى رئيس إحدى الدوائر فى محكمة مصر المختلطة عن نظر إحدى القضايا، فترتب على هذا التنحى هذه الأزمة الحالية التى لا نزال نخوض غمارها وإنى لأخشى، ونحن نعتمد على المصادفات، أن ننصرف عن هذه المسألة الحيوية بمجرد انتهاء المناسبات التى دعت إلى الاشتغال بها. فكم سبق هذه الازمة أزمات شغلت الرأى العام قليلا أو كثيرا، ثم مالبث أن انصرف عنها، ولم يعد يذكرها، حتى تقوده المصادفة المحضة للعودة اليها. ثم إنى لأخشى أن تقتصر الحكومة المصرية فى معالجة هذه المسألة الخطيرة، على ناحية أو ناحيتين منها، مكتفية بما ساقته المصادفات أمامها من المشاكل، فتفاوض فى رياسة الدوائر أو فى مسألة اللغة العربية، أو فى غير ذلك من المسائل التفصيلية. وما هذه وغيرها إلا أعراض لمرض مستحكم، لا تجدى فيه معالجة الأعراض دون استئصال موطن الداء. يجب أن يكون للحكومة المصرية خطة شاملة عامة لمعالجة مسألة الامتيازات فى مجموعها. وهذا ما جعلنى أدلى برأيى فى هذا الموضوع الخطير، وأدعو رجال القانون إلى الادلاء بآرائهم، حتى تتمحص الآراء، فترتسم أمامنا الخطة العملية لتخليص البلاد من هذه النكبة.

لا يجوز أن ننسى أن مسألة الامتيازات لها جانب سياسى غير جانبها القانونى. وقد يكون هذا الجانب السياسى هو أشد الجانبين استعصاء على الحل. وكل محاولة ترمى إلى إيجاد حل عادل للمسألة، ولا تبدأ بمعالجتها من جانبها السياسى، مقضى عليها بالفشل. انجلترا تزعم لنفسها حق حماية المصالح الأجنبية فى مصر. وقد تقدمت بهذه الدعوى فى مشروع ملنر، وفى تصريح ٢٨ فبراير، وفى مشروع كيرزون، وفى كل المشروعات التى تلته. وقد كانت تفرع على هذه الدعوى دعوى أخرى لا تقل عنها انتقاصا لسيادة البلاد : كانت تطلب أن تاخذ من مصر تفويضا تتولى بمقتضاه مفاوضة الدول ذوات الامتيازات. ثم نزلت عن هذه الدعوى منذ المفاوضات التى دارت مع المرحوم ثروت باشا. ويظهر أنها أخذت تفكر أخيرا فى الرجوع ثانية الى هذه الدعوى.

فهناك أمران يجب الاحتراز منهما فى أية محاولة تقدم عليها لحل مشكلة الامتيازات : (أولا) ألا نعطى لانجلترا سبيلا لمفاوضة الدول ذوات الامتيازات. فان المعاهدات التى تقوم عليها الامتيازات الأجنبية قد ورثنا بعضها عن تركيا وعقدنا البعض الآخر مع الدول. فقيام انجلترا بالمفاوضة ليس معناه الا تسليما منا بدعواها حماية المصالح الأجنبية. وإلا فان الوضع الطبيعى للمسألة يقتضى الا يكون تعديل هذه المعاهدات أو إلغاؤها إلا

بمعاهدات تكون مصر طرفا فيها . ولا يمنع هذا من تلبس معونة انجلترا ووساطتها الودية فى المفاوضات التى تقوم بها الحكومة المصرية مع الدول ، والفرق كبير بين أن تبذل انجلترا وساطتها لتأييد جهودنا وبين أن تكون هى الطرف المفاوض . (ثانيا) أن تلق بنا رغبتنا الملحة فى التخلص من الامتيازات فيما هو أشد خطرا منها . فادامت انجلترا على دعواها من حماية المصالح الأجنبية ، فان أى حل توافق عليه يكون من شأنه تأييد هذه الدعوى وتدعيمها . فالواجب إذن أن ننظر فى المسألة من أساسها ، وأن نقدم معالجة دعوى انجلترا فى حماية المصالح الأجنبية على معالجة الامتيازات ، ولا نحاول الثانية قبل أن ننتهى من الأولى . وإلا فان التسليم لانجلترا بحماية الاجانب فى مصر انتقاص خطير من سيادة البلاد ، وفتح الباب لتدخل الانجليز فى شؤوننا الداخلية .

نرى مما تقدم أن المساعى التى تبذلها مصر فى إلغاء الامتيازات الأجنبية يجب أن تكون مسبوقة بتفاهم تام مع انجلترا ، على أن تعديل هذه الامتيازات أو إلغاءها لا يكون الا على أساس أن تسترد مصر حقوق سيادتها التى انتقصت منها هذه الامتيازات ؛ لا أن تنتقل هذه الحقوق الى انجلترا . فاذا تم هذا التفاهم ، سواء أكان ذلك فى مفاوضات عامة شاملة لحل المسألة المصرية فى مجموعها ، أم فى مفاوضات خاصة بهذه المسألة إذا لم يتهيأ السبيل لمفاوضات عامة . يمكن بعد ذلك تلمس السبيل العملى للوصول الى إلغاء الامتيازات .

ونحن نقترح سبيلا عمليا يكون سيرنا فيه مقرونا بالحكمة ، فلا نتخذ تدبيرا إلا اذا دعت اليه الضرورة . نحاول اولا التفاهم مع الدول ذوات الامتيازات أنفسها على تعديل النظام الحالى للامتيازات ، فقد أصبح هذا النظام يصطدم مع الكرامة والعدالة والمصلحة . فان لم نفلح عرضنا على انجلترا ان تؤيدنا فى الغاء الامتيازات باعلان يصدر من جانبنا ، بشرط ألا تجعل من هذا التأييد وسيلة لتثبيت دعواها فى حماية المصالح الأجنبية ؛ فان لم نفلح أخذنا على أنفسنا مسئولية إلغاء المحاكم المختلطة والغاء الامتيازات معاً ، أو الاقتصار على إلغاء النظام الأول دون الثانى . ونفترض فى كل هذا أن الشعب المصرى يؤيد الحكومة التى تتولى اتخاذ هذه التدابير ، إذ لا يجوز لأية حكومة مصرية لا تحوز ثقة الشعب أن تقدم على الغاء الامتيازات ، فان الاقدام على هذا الامر الخطير يقتضى ان يكون للحكومة سند من الشعب ، والحكومة التى تفقد هذا السند ليس أمامها الا أن ترتمى فى أحضان انجلترا ، فتجر على البلاد نكبة أشد وبالا من نكبة الامتيازات .

وهانحن أولاء نفصل ما أجملناه ، ونقسم السير فى الطريق الذى نقترحه الى خطوات :

الخطوة الاولى

تستصدر الحكومة المصرية مرسوما بالغاء المحاكم المختلطة طبقا لقانون نمرة ٢٨ سنة ١٩٢١ . وتنشر هذا المرسوم فى الجريدة الرسمية ، حتى يكون الألغاء نافذا بعد سنة من نشره

الخطوة الثانية

بعد نشر هذا المرسوم تدعو الحكومة المصرية الدول ذوات الامتيازات الى الدخول معها فى مفاوضات بشأن تنظيم الحالة التى ستجد عقب إلغاء المحاكم المختلطة

ونحن نشدد فى استصدار المرسوم بالغاء المحاكم المختلطة ونشره قبل الدخول فى مفاوضات مع الدول ، لأن هذا هو السبيل لاقناع هذه الدول بأن الحكومة المصرية ومن ورائها الأمة تؤيدها ، قد عقدت العزم على السير فى طريقها ، ولو لم تؤد المفاوضات الى اتفاق ، وان مصير المحاكم المختلطة قد أصبح محتوما ، فلا مناص من إلغاء هذه المحاكم مهما كانت نتيجة المفاوضة . وفى هذا معنى خطير لا يفوت الدول ، ولا يمكن إلا أن يكون مؤثرا فى سير المفاوضات .

وتكون الدعوة الى المفاوضة مصحوبة بمذكرة تبين فيها الحكومة المصرية الأسس التى تقترحها لاقامة النظام الجديد الذى يعقب إلغاء المحاكم المختلطة .

وفى رأينا أن تكون هذه الأسس مبنية على دعائم ثلاث : (أولا) ايجاد محاكم جديدة تحل محل المحاكم المختلطة ، ولكنها تختلف عنها اختلافا كبيرا من حيث تقوية العنصر المصرى فيها ، فهى ستكون محاكم مصرية قانونا وعملا ، (ثانيا) استرداد ما فقدته الدولة المصرية من حقوقها التى لا تأباها عليها نفس الامتيازات حسب وضعها الأصلى ، كحقها فى سن تشريعات عقارية ولوائح بوليس تسرى على الاجانب دون موافقة الدول . واسترداد الحقوق التى انكرتها عليها المحاكم المختلطة الحالية من طريق التوسع فى تفسير

اختصاصها توسعا لا يسيغه المنطق القانونى الصحيح . ثم استرداد الحقوق التى انكرتها المحاكم المختلطة ، لا من طريق التوسع فى التفسير ، بل من طريق خرق التقاليد القضائية أو النصوص القانونية الصريحة . فان المحاكم المختلطة ، وهى معقل الامتيازات الاجنبية فى مصر قد عملت على تقوية الامتيازات من هذه الطرق المختلفة . توسعت فى تفسير النصوص فحملتها مالا تحتمله ، كما فعلت فى نظرية الصالح المختلط وفى تفسير معنى الاجنبى . ثم خرقت التقاليد القضائية بانكارها على القاضى المصرى أن يتولى رياسة دائرة هو أقدم أعضائها ، دون أن يكون هناك فى القانون ما يمنعه من ذلك . ولجأت أخيراً الى انكار النصوص الصريحة ، كما فعلت عندما أنكرت على اللغة العربية أن تكون لغة رسمية تنطق بها الاحكام ويجرى بها التقاضى .

(ثالثا) توقيت النظام الجديد الذى يحل محل النظام القديم ، حتى يتهيأ لمصر فى الوقت المناسب أن تتخلص من هذا النظام الجديد أيضا كما تخلصت من النظام الذى سبقه ، ولا يكون فى البلاد الا نظام واحد فى التشريع والقضاء يسرى على جميع سكان مصر .

وتطبيقا لذلك نرى أن تدعو الحكومة المصرية الدول لعقد معاهدة يكون من حق الحكومة المصرية إنهاؤها بأعلان يصدر من جانبها بعد سنة من تاريخ نشر هذا الاعلان . وفى حالة إنهاء المعاهدة لا يعود النظام الحالى للمحاكم المختلطة بل يعتبر هذا النظام قد الغى بصفة نهائية . وتتناول المعاهدة جوانب ثلاثة : التشريع والقضاء والادارة

١ — التشريع

ينص فى المعاهدة على أن التشريع المصرى يكون نافذا على الاجانب ، بما فيه التشريع المالى ، اذا مضى ثلاثون يوما من عرض هذا التشريع على الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة الجديدة (وسنبين تشكيلها فيما بعد) دون أن تقدم هذه الجمعية اعتراضا على التشريع المذكور . ولا يجوز الاعتراض على أى تشريع مصرى الا اذا كان هذا التشريع يتضمن مبادىء تتنافى مع المبادىء العامة التى يقرها العالم المتمدين فى التشريع تنافيا يخل بالعدالة . وتبين الجمعية العمومية المسائل التى لاحظت فيها هذا التنافى . فاذا اقتنعت الحكومة المصرية بوجهة نظر الجمعية العمومية لا يكون التشريع نافذا على الاجانب ذوى الامتياز ، وإن لم تقتنع كان لها أن ترفع الأمر الى محكمة لاهاى . أما فيما يتعلق بالتشريع المالى فلا يجوز للجمعية العمومية أن تعترض على ضريبة تفرض إلا اذا أخلت بالمساواة فيما بين الاجانب ، أو فيما بينهم وبين المصريين ، عدا الضرائب الخاصة بالأجانب التى يكون لها نظير فى البلاد المتمدينة . ولا يعتبر إخلالا بالمساواة أن تفرض ضريبة على جميع السكان ، حتى لو تبين أن عبء هذه الضريبة يقع على عاتق الأجانب أكثر مما يثقل كاهل المصريين ، بسبب أنها تتناول أعمالا يغلب فيها العنصر الأجنبى كالشركات . واذا اعترضت الجمعية العمومية على تشريع مالى لانه لا يحقق المساواة المطلوبة ، كان للحكومة المصرية أن ترفع الأمر الى محكمة لاهاى . ويستثنى من الاحكام المتقدمة ما يأتى :

(١) أى تشريع يعدل أو يلغى حكما من أحكام هذه المعاهدة ، فهذا لا يكون نافذا على الاجانب ذوى الامتياز الا بعد الاتفاق مع دولهم على ذلك

(٢) التشريع الخاص بعقار ، بما فيه الضرائب العقارية ، فهذا يكون نافذا على الأجانب دون حاجة الى عرضه على الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة

(٣) لوائح البوليس التى تفرض عقوبة لا تزيد على عقوبة المخالفة ، وهذه أيضا تكون نافذة دون حاجة الى عرضها على الجمعية العمومية . وغنى عن البيان أن التشريعات التى تطبقها المحاكم المختلطة الحالية (كالتقنينات الستة المعروفة) تعتبر تشريعات نافذة دون حاجة الى عرضها على الجمعية العمومية ، إلا إذا رأت الحكومة المصرية تعديل هذه التشريعات (وستظهر ضرورة ذلك بنوع خاص فى القانون الجنائى وقانون الاجراءات الجنائية وعند تنقيح القانون المدنى) ، ففى هذه الحالة تعرض التعديلات التى يراد ادخالها على الجمعية العمومية على النحو الذى بيناه فيما تقدم .

هذه هى المقترحات الخاصة بالتشريع ، وتتولى الآن تبريرها . فهى قسمان : قسم أقرته انجلترا فى المقترحات التى عرضتها على مصر عندما دارت المفاوضات المختلفة بين الدولتين . (١) وقد ورد ذكر

(١) بحثنا هذه المقترحات بحثا مستفيضا فى المقدمة التى وضعناها لكتاب « الامتيازات الاجنبية » لمؤلفه الاستاذ محمد عبد البارى (لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٠)

ذلك فى المذكرة البريطانية المتعلقة بالامتيازات فى المفاوضات التى دارت بين المستر هندرسون ومحمد محمود باشا إذ جاء فيها ما يأتى : « وسأكون مستعداً للاتفاق على أن تقوم الجمعية العمومية للمحاكم المختلطة فى المستقبل بابداء كل موافقة لازمة لتطبيق التشريع المصرى ، ومن ضمنه التشريع المالى ، على الأجانب ، الا فى حالة التشريع الخاص بتشكيل المحاكم المختلطة وتحديد اختصاصاتها ، فانه لا ينفذ الا بموافقة الدول عليه . ويكون على الجمعية العمومية للمحاكم المختلطة أن تتثبت من أن التشريع المشار اليه لا يناقض المبادىء التى يجرى العمل بموجبها عادة فى التشريع الحديث الذى يسرى على الاجانب . وأنه فيما يتعلق بوجه خاص بأى تشريع ذى صفة مالية لا يوجد تمييز غير عادل ضد الأجانب بما فيهم الشركات الاجنبية ، (انظر الكتاب الأخضر الخاص بهذه المفاوضات ص ١٠) . ومن هذا يتبين أننا لم نأت بجديد الا فى شىء واحد . فالمذكرة البريطانية تشترط موافقة الجمعية العمومية على كل تشريع مصرى يراد سريانه على الاجانب ، أما نحن فنكتفى بعدم اعتراض هذه الجمعية على التشريع المقدم اليها . والفرق ما بين الأمرين ظاهر ، فنى الحالة الأولى يجب ان تكون هناك أغلبية توافق على التشريع حتى يسرى على الاجانب ، أما فى الحالة الثانية فيجب ان تكون هناك أغلبية تعترض على التشريع حتى لا يسرى على الاجانب ، فاذا انقسمت الجمعية فى أمر تشريع الى فريقين متساويين فى العدد ، لم يسر التشريع على الأجانب فى الحالة الأولى وسرى فى الحالة الثانية . ولا يخفى ما لهذا الأمر من الأهمية إذا لوحظ أن نصف أعضاء الجمعية العمومية يجب ان يكون من المصريين كما سنبين ذلك فيما يلى . أما فيما يتعلق برفع الأمر الى محكمة لاهاى ، فهـــذا هو المبدأ الذى تقرر فى المفاوضات التى دارت بين انجلترا ومصر .

والقسم الثانى من هذه المقترحات جديد ، وهو خاص بالتشريع العقارى وبلوائح البوليس . هذه تشريعات نريد ان نسترد فيها حقوق مصر الضائعة . فان للمشرع المصرى حتى بمقتضى الامتيازات الأجنبية ، الحق فى أن يسن قوانين تسرى على الاجانب ، دون حاجة لموافقة الدول أو لموافقـــة الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة ، إذا كانت هذه القوانين خاصة بالعقارات فى مصر ، سواء أكانت هذه القوانين مالية (أى تفرض ضريبة عقارية) أم غير مالية . وذلك أن الاجانب لم يسمح لهم قانونا بتملك عقار فى مصر إلا على أساس الفرمان العثمانى الصادر فى سنة ١٨٦٧ ، وقد اشترط هذا الفرمان فى تملك الاجنبى للعقار ان يخضع للقوانين واللوائح التى يخضع لها الرعايا العثمانيون ، وان يدفع جميع التكاليف والضرائب التى تجبى أو يمكن أن تجبى فى المستقبل على العقارات فى المدن أو فى القرى ، تحت اى شكل كانت ، وبأى اسم سميت . فمن حق مصر ان تسترد هذا الحق الضائع ، فان اغتصابه منا خرق للامتيازات الأجنبية نفسها التى يحتج بها الاجانب علينا (١) وكذلك الأمر فى لوائح البوليس ، فقد كان لمصر سن هذه اللوائح ، وكانت تسرى على الاجانب قبل وجود المحاكم المختلطة نفسها . وتأيد هذا الحق بنص المادة العاشرة من القانون المدنى المختلط ، وبنص المادتين ٣٣١ و ٣٤٠ من القانون الجنائى المختلط (٢)

(تتمة البحث فى العدد القادم) عبد الرزاق السنهورى

(١) وقد كان من الممكن أن تستمسك مصر بحقها فى فرض أية ضريبة ، عقارية على الاجانب ، دون الرجوع الى الجمعية العمومية مادامت الضريبة غير مجحفة . فان الامتيازات الاجنبية لا تأبى علينا هذا الحق ، لأن الاجانب لم يعفوا بموجب هذه الامتيازات من الضرائب التى يتساوون فيها مع الاهالى ، بل من الضرائب التى ينفردون بها وحدهم ، كالجزية التى تجبى من غير المسلمين (أنظر مقدمة كتاب « الامتيازات الاجنبية » المشار اليها ص ٤٣)

(٢) أنظر كتاب الاستاذ لامبا (Lamba) فى الحالة القانونية للاجانب فى مصر . باريس سنة ١٨٩٠ ص ٢١٢ — ص ٢٢٨ .

مقيـــاس الرقى

للأستاذ أحمد امين

سالنى أديب سورى ، بمناسبة مقال كتبته عنوانه «المسلمون أمس واليوم »

بم نعـــد أمة أرقى من أمة ، وما العوامل التى نحسبها ونقيس بها الرقى ؟ وفى الامة الواحـدة ـ اذا سئلنا أ كانت بالامس خيراً منها اليوم ، أم هى اليوم خيرٌ منها أمس . فأى النواحى نرعاها عند النظر ؟

والحق أنها أسئلة فى منتهى الصعوبة ، يحار المجيب عنها أى العوامل يحسب وأيها يترك ، وأيها لها قيمـــة كبيرة الأثر وأيها ضعيف الاثر ؟

قد يجيب مجيب اجابة سهلة من طرف اللســـان فيقول « مقياس الرقى فى الامم الاخلاق » فأرقى الامم أحسنها خلقا ولـكن هذه الاجابة لا تقنع ، فالاخلاق متغيرة ، وكل عصر له أخلاق يتطلبها وواجبات ينشدها ، وما علينا الآن من واجبات أضعاف ما كان على أجـدادنا منها ، أصبح واجباً علينا أن نعلم أولادنا فى المدارس ، وما كان ذلك واجبا من قبل انمـا كان تبرعا من الاب ، وأصبح واجبا علينا ترقية الوطن من جهات متعددة وما كان ذلك واجبا من قبل ، وان كان واجبا فواجب غامض ليس محدود المعنى ولا معين الاتجاه ، وكان آباؤنا يعدون من أرقى الاخلاق فى الامة حجاب نسائها وبناء سور متين بين الرجل والمرأة ، فأصبحنا نرى الواجب أن تتعلم المرأة كما يتعلم الرجل ، ومن حقها أن تسمع المحاضرات مع الرجل ، وأن تتمتع بالحياة البريئة كما يتمتع الرجل ، فاذا قلنا مقياس الرقى الاخلاق كانت كلمة عامة تدل على كل شىء ولا تدل على شىء .

وقوم يقيسون الرقى بالدين ، وهى كذلك كلمة عامة يختلف مدلولها باختلاف أنظار الناس فيضيق عنـــد بعض الناس حتى لا يسع الا الصلاة والصوم والزكاة والحج ، ويتسع عند بعض الناس حتى يشمل كل شىء .

وفى الحق أن هناك مناحى للحياة مختلفة متعددة يجب أن ينظر اليها كلها لتقويم الرقى ـ ففى كل أمة مجموعة من المرافق ، يعد كل مرفق منها كالخلية فى الجسم الحى : من حكومة وتعليم ولغة ودين وأسرة ونظام اقتصادى ونحو ذلك ، كلها تتغير وكلها ترقى أو تنحط ، وكلها فى حركة مستمرة دائما إما الى الامام وإما الى الخلف . وكلها تتفاعل تفاعلا قويا ، يؤثر قويها فى ضعيفها ، وضعيفها فى قويها ـ وهذا التغير الدائم فى كل هذه المرافق هو مقياس الرقى والانحطاط ، فان كان تغـــيراً الى سمو فرقى ، وان كان تغيراً الى تدهور فانحطاط

وحسبان هذا ليس بالأمر اليسير ، فقد تتدهور بعض المرافق لاسباب خاصة ، وتسمو بعض المرافق لأسباب كذلك ، ثم تتفاعل عوامل الضعف والقوة فينشأ من ذلك عملية حسابية من أصعب المسائل حلا . والمثل الأعلى للأمة أن يكون كل مرفق من مرافقها الاجتماعية يؤدى عمله خير اداء ، ويتنقل فى سمو أبدا ، وأن يكون سيره ورقيه فى حالة ملائمة ومناسبة لسائر المرافق الاجتماعية ، لايطفر عنها ولا يقعد بها ـ فالامة التى تختار أحسن النظم فى التربية والتعليم ولا تساعدها اللغة على المصطلحات الحديثة لاترقى فى التربية والتعليم حتى تحل مشكلتها اللغوية ، والأمة التى تختار أحسن النظريات الفقهية وخير النظم القضائية ، ثم لا يعينها على ذلك حالة الاسر الاخلاقية وحالة المعاملات بين الافراد لا يمكن أن ترقى بنظرياتها الفقهية من الناحية القضائية ، والأمة التى تسن أرقى أنواع الاصلاحات الاجتماعية ثم لا تعينها الناحية الاقتصادية تصبح واصلاحاتها تسر القارىء ولا تسر الناظر وهكذا .

* * *

وهناك دلائل قوية تدل الباحث على رقى الامة وتدهورها وسيرها الى الامام أو الى الخلف ، إما بمقارنتها بغيرها من الامم فى نواح معينة أو بمقارنتها بنفسها فى عصرها الحاضر

وعصرها السابق ، والمقارنة الاولى تدلنا على الدرجة التى تقف عليها الأمة فى سلم الرقى العام ، والمقارنة الثانية تدلنا على اتجاه سيرها : الى فوق أو الى تحت

من أهم هذه الدلائل تعرّفُ موقف الامة ازاء مايحيط بها من ظروف طبيعية واجتماعية : هل هذا الجيل أحسن استخداما لبيئته وما يحيط به ؟ هل استطاع أن يوجد منابع لثروته وسعادته أكثر مما استطاع أسلافه ؟ هل استخدم المنابع القديمة خيرا مما استخدمها آباؤه ؟ هل كان فى حله لما يعرض له من المشاكل الاجتماعية والطبيعية أكثر توفيقا ؟ لما عَرَضت هذه المصاعب أوأمثالها لنا ولآبائنا كيف حلوها وكيف حللناها ، ومامنهجهم فى الحل وما منهجنا ؟ مامقدار تضامن الافراد يومذاك فى التغلب عليها ، وما مقدار تضامننا اليوم ؟ لكل أمـة مقدار من الثروة ، فهل زادت ؟ وهل استطاعت اليوم أن تسعد بثروتها أكثر مما كانت تسعدبها من قبل ؟ هل استخدمت العلم أحسن مما استخدمه آباؤها فقلت الوفيات وتحسنت صحتها ، وجمل منظرها ، ونظفت عيشتها ، وأصبح نيل القوت أسهل وأيسر حتى تفرغ كثير من أبنائها وبناتها للعلم والفن والأدب ؟ أظن ان هذه الاسئلة متى حددت بهذا الشكل لم تكن الأجابة عليها عسيرة ، وبذلك نستعين على تعيين الاتجاه ومقدار الرقى ان كان .

***

ومن ناحية أخرى ، ربما عد من أكبر دلائل الرقى فى الأمة « تذليل العقبات امام الكفايات » فخير الأمم من أفسحت السبيل أمام أفرادها ليرقوا كما يشاؤون حسب استعدادهم وجدهم ، فى التعلم ، فى الوظائف ، فى النواحى السياسية والاجتماعية ـ وقد قطعت الأمم المتمدنة فى ذلك خطوات واسعة ، فازالت احتكار الارستقراطية للمناصب العليا ، وسهلت وسائل التعلم لمن شاء ، واعتمدت فى تقدير الاشخاص على مزاياهم لاعلى بيتهم ـ الى درجة كبيرة ـ وحاربت « المحسوبية » والنزعات الارستقراطية ، وقضت على النظام الاقطاعى الذى يميز بين الطبقات ، ويضع حدا فاصلا بينها لا يمكن تخطيه ووضعت النظم الاقتصادية الحديثة ، وفيها يمكن كل فرد بذكائه ومواهبه ان يصل إلى ما يستطيع من رقى ـ وان كانوا هم أنفسهم يصرحون بأنهم لم يبلغوا الغاية في ذلك ، وأن أمامهم عقبات شاقة ومسافات طويلة يجب ان يقطعوها حتى يسهل على كل فرد تحقيق غايته وبلوغ شأوه

***

وربما كان كذلك من أهم دلائل الرقى النظر الى ثروة الأمة ومقدار مايصرف منها على « الصالح العام » من مدارس ومصانع ومساجد ومتنزهات وحدائق وماء وانارة ونحو ذلك ولست أعنى النظر الى كمية مايصرف فحسب ، ولكن أعنى أيضا كيفية الصرف ، وهل انفق هذا القدر فى أحسن السبل وهل هناك وجه آخر خير منه ؟ . كذلك لست أعنى ماينفق فى ذلك من ميزانية الحكومة فقط ، ولكن اعنى أيضا مقدار شعور الافراد فى هذا الباب ومقدار مايتبرعون به من أموالهم لهذا الصالح العام ، فليست ثروة الأمة مقصورة على ميزانية الحكومة ولكنها تشمل ثروة الأفراد « وفي أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » فالأمة التى لايشعر أغنياؤها بواجب فى أموالهم لفقرائها ، أو يشعرون شعورا ضعيفا لا يقوى على استخراج المال من جيوبهم ، أمة منحطة اذا قيست بغيرها من الأمم التى كثرت فيها المدارس والاندية والمستشفيات والجمعيات الخيرية من مال أغنيائها

ومما يتصل بهذا الأمر ، النظر فى ميزانية الأُسَر فى الأمة وكيف تنفق ، فامة خير من أمة اذا عرفت أسرها كيف توازن بين دخلها وخرجها ، وكيف تفرق بين الضرورى والكمالى وما ليس بضرورى ولا كمالى ، ولم تسمح لنفسها أن تصرف فى الكمالى حتى تستوفى الضرورى ، ولا فى غير الضرورى والكمالى ـ حتى تستوفى الكمالى ؛ فذلك ـ من غير شك ـ يجعل الأسر أسعد

حالا ، وأهدأ بالا ، وأكثر استعدادا للرقى ، وهل الأمة الا مجموعة من الاسر ؟ وهل رقى الامة الا حاصل جمع رقى الاسر ، وكما أن أسرة قد تكون اسعد من أسرة مع ان دخلها أقل وثروتها أضعف ، ولكن عقلها أكبر ، وتصريفها لمالها أدق ، فكذلك الأمم ليس خيرها أغناها ، ولكن خيرها من عرفت كيف تستخدم مالها وأحاطت ماتملك بوسائل اجتماعية ، وكمية كبيرة من الاصلاح تجعل مالها يتضاعف فى القيمة وان لم يتضاعف فى العدد . فكم من الأمم لها ثروة كبيرة طبيعية ولكن لم تعرف كيف تستخدمها ولا جزءا منها ، ولو حلت محلها أمة أخرى لصيرت صحراءها بستانا وجبالها جنانا ، ولجعلت ترابها ذهبا وأرضها عجبا

ومن أجل هذا لم يخطىء كثيراً من حصر مقياس رقى الامة فى مقدار تغلبها على طبيعة بلادها وتعديل نفسها حسب ما يحيط بها — لانها لا تصل الى ذلك الا بمقدار كبير من العلوم الطبيعية يمكنها من الانتفاع بارضها وجوها وبقدر وافر من العلوم الاقتصادية يبين لها كيف تستغل منابعها ، وبمقدار صالح من النظم السياسية والاجتماعية والاخلاقية يهىء للافراد سبل الانتفاع بما حولهم ويعدهم خير اعداد للنظر فى مصالحهم .

فليتساءل الشرقى فى ضوء هذا : أين هو فى نفسه ، وأين هو فى أمته ، وأين أمته فى العالم ؟

أحمد أمين

الحرب فى بلاد العرب

تطور الحوادث فى الجزيرة
وصداه فى الأفق الدولى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أسفرت المعارك التى نشبت فى الأسبوعين الأخيرين فى هضاب عسير وتهامة بين القوات السعودية والقوات اليمانية عن نتائج خطيرة حاسمة فيما يظهر ؛ فقد استطاعت القوات السعودية أن تتوغل فى نجران وفى عسير بسرعة مدهشة ، وأن تستولى على منطقة واسعة فى شمال اليمن تشمل عسيراً ونجران وجميع الجهات والمواقع التى كانت موضع النزاع بين البلدين ، وأن تتقدم بعد ذلك فى أراضى اليمن ذاتها بحذاء البحر الأحمر حتى ثغر الحديدة ، وهو أهم الثغور اليمانية ، وأن تستولى عليه بعد أن فرت منه قوات الامام التى كان يقودها ولده وولى عهده سيف الاسلام . وقد كنا نؤمل حين كتبنا مقالنا الأول عن هـــذه الحرب التى تضطرم بها الجزيرة العربية ، أن يكون لصوت العالم العربى والاسلامى أثره فى تدارك هذا الخلاف الخطر ، وفى وقف المعارك قبل استفحالها . وقد رفع العالم الاسلامى صوته قوياً بمناشدة الزعيمين أن يتذرعا بالروية والحسنى فى حسم النزاع القائم بينهما ، وسافر الى مكة وفد عربى إسلامى يمثل عدة من الأمم العربية لتحقيق هذا المسعى . ولكن الظاهر أن سير الحوادث لم يفسح مجالا للتفاهم الحسن بين الملكين ؛ وقد كان جلالة ابن السعود يشترط لوقف القتال شروطاً يراها لازمة لسلامة حدوده وسلام مملكته ، وهى جلاء القوات اليمانية عن نجران ومواقعها الجبلية ، وإطلاق الرهائن ، وتسليم الأدارسة ؛ ولكن سيادة الامام يحيى لبث حيناً يتردد بين القبول والاعتراض ؛ وحدث فى تلك الفترة أيضاً أن تقدمت القوات اليمانيـة فى نجران وعسير واحتلت مواقع جديدة ؛ وأيقن ابن السعود بعد طول المكاتبة والمفاوضة أن الامام لا يريد اتفاقا ولا يسلم بشىء من مطالبه . ويبدو من مراجعة الكتاب الرسمى الأخضر الذى أذاعته

الحكومة السعودية عن سير المفاوضات والمكاتبات بين الملكين أن ابن السعود تذرع بكثير من الروية والأناة فى محاولة إقناع الامام باحترام المعاهدات المعقودة والحالة الواقعة. وتدل وثائق الكتاب الأخضر أيضاً على أن عوامل التحريض كانت تعمل عملها فى عسير ونجران لدفع قبائلهما الى الثورة على عمال الحكومة السعودية وأصدقائها. إزاء هذه العوامل والظروف لم ير ابن السعود بداً من الالتجاء إلى القوة المادية؛ فزحفت القوات السعودية فى نجران وتهامة صوب الجنوب، واستولت على جميع مواقعهما وانتهت كما تقدم بالاستيلاء على ثغر الحديدة، وانهارت فى الحال كل التدابير التى اتخذها الامام للحرب والدفاع، وأضحت اليمن تحت رحمة القوات السعودية التى تطوقها من الشمال والغرب.

وتطور الحرب بين ابن السعود والامام على هذا النحو يثير احتمالات ومسائل فى منتهى الخطورة، سواء فى داخل الجزيرة العربية او خارجها، ولاسيما اذا استمرت القوات السعودية فى زحفها على اليمن وانتهت بالاستيلاء عليها. ذلك أن ابن السعود الذى يسيطر على قلب الجزيرة العربية من الاحساء وعمان شرقا الى ساحل البحر الاحمر غربا، ومن بادية العراق وشرق الاردن شمالا حتى الربع الخالى جنوبا، يغدو باستيلائه على اليمن سيد الجزيرة المطلق، والمسيطر على الساحل الشرقى للبحر الاحمر كله من العقبة حتى مضيق باب المندب. وقيام امبراطورية عربية قوية على هذا النحو تشمل نجدا والحجاز واليمن مما يثير اهتمام السياسة البريطانية ومخاوفها. وقد كان تقدم المملكة السعودية فى الاعوام الاخيرة موضع اهتمامها دائماً. ذلك أن المملكة السعودية تجاور مناطق النفوذ البريطانى والاملاك البريطانية فى جميع انحاء الجزيرة العربية؛ فهى تجاور عمان والكويت من الشرق، والعراق وفلسطين وشرق الاردن من الشمال، واذا تم ضم اليمن اليها، فانها تجاور عدن وحضرموت من الجنوب. وعلائق ابن السعود مع بريطانيا العظمى ودية حسنة. وقد نظمت منذ سنة ١٩٢٢ بمعاهدة المحمرة ثم ببروتوكول العقير. بل إن علائق الصداقة بين ابن السعود وبريطانيا ترجع الى ما قبل عشرين عاما، اعنى الى ما قبيل الحرب الكبرى. وكان ابن السعود يومئذ اميرا محليا، فرأى فى اتصاله بالسياسة البريطانية وسيلة لتحقيق مشروعاته؛ وحالف بريطانيا العظمى على الترك، ولزم الحياد أثناء الحرب وفاء بعهده لها. وافتتح فى ذلك الحين منطقة شمر فى شمال نجد وانتزعها من يد خصمه ومنافسه ابن الرشيد، وبدأت امارة نجد تتخذ مكانها واهميتها فى شئون الجزيرة العربية. وفى سنة ١٩٢٤ غزا ابن السعود الحجاز واستولى عليها من يد الحسين بن على ملكها يومئذ، وامتدت حدود نجد حتى ساحل البحر الاحمر، وقامت من ذلك الحين مملكة نجد والحجاز القوية، واعترفت بقيامها الدول وفى مقدمتها بريطانيا العظمى. وكانت السياسة البريطانية خلال هذه المراحل كلها ترى فى ابن السعود صديقا لها؛ ولم يشب هذه العلائق الودية شىء من الكدر الا فى سنة ١٩٢٨ إذ اغارت بعض القبائل النجدية على حدود العراق، ونشب الخلاف بين الفريقين على مسألة مخافر الحدود؛ ثم سوى الخلاف وعاد التفاهم بين الفريقين.



ولكن المملكة السعودية قد غدت فى الجزيرة العربية قوة يخشى بأسها، وهى تدلل اليوم على قوتها مرة أخرى بذلك الغزو السريع لنجران وتهامة، ثم شمال اليمن واستيلائها على ثغور جديدة على البحر الأحمر، وقد لا تقف القوات السعودية فى زحفها حتى يتم استيلاؤها على بلاد اليمن كلها، وتغدو اليمن كالحجاز ولاية جديدة فى المملكة السعودية الكبرى: واجتماع الأمم العربية داخل الجزيرة تحت هذا اللواء القوى يثير روحاً جديداً فى القضية العربية ويقوى فكرة الجامعة العربية، ويحيى الآمال فى تحقيقها. والسياسة البريطانية لا تنظر إلى هذه التطورات بعين الارتياح لانها تزيد فى متاعبها حيثما تبسط سلطانها على أطراف الجزيرة العربية، والسياسة الفرنسية التى تسهر على مصاير سوريا

تخشى أن يثير هذا الروح المعنوى الجديد فى الوطنية السورية قوة جديدة ، ويزيد فى متاعبها فى سوريا . هذا ومن جهة أخرى فان السياســـة الايطالية ترقب تطور الحوادث فى اليمن بمنتهى الاهتمام والجزع أيضا . وللسياسة الايطالية فى اليمن مركز خاص ، ولايطاليا فى اليمن مطامع لا تخفى . وقد نظمت العلائق من سنة ١٩٢٨ بين الامام يحيى وايطاليا وعقدت بينهما معاهدة تجارية اقتصادية ، وأخذت ايطاليا من ذلك الحين تعمل بكل الوسائل على تقوية نفوذها فى اليمن ؛ والسياسة الايطالية لم تكن بعيدة عن موقف الامام فى الحوادث الأخيرة ولم تكن بعيدة عن شد أزره بالمـال والرجال والذخائر فى الحرب التى ستنشب بينه وبين ابن السعود . ثم يجب ألا ننسى أن مستعمرة أريترية الايطالية تقع تجاه اليمن على الضفة الغربية من البحر الأحمر ، فاستيلاء ابن السعود على اليمن يقضى على مشاريع السياسة الايطالية فى اليمن ، ويجعل ساحل المستعمرة الايطالية عرضة لأخطار جديدة ، ويضع حدا للتوسع الايطالى فى تلك المنطقة .

والسياسة البريطانية تقف اليوم موقف التريث والانتظار ؛ ولكن فى اجتماع السفير الانكليزى فى جده بابن السعود ، حسبما نقلت الينا الانباء الاخيرة ، ومحادثته إياه فى الاحتمالات التى نشأت عن انتصار الجيوش السعودية ، وعما اذا كانت تنوى التقدم بعد فى قلب اليمن — فى ذلك ماينم عن اهتمام السياسة البريطانية بتطور الحوادث على هذا النحو ؛ وربما عن قلقها أيضا . ذلك لأن اليمن تجاور منطقة عدن البريطانية وتشرف عليها من الشمال والغرب ؛ ولعدن أهمية حربية خاصة فهى مفتاح باب البحر الاحمر من الجنوب ، ومفترق الطريق الامبراطورى البحرى الى الهند والشرق الاقصى ؛ فوقوع اليمن فى يد زعيم قوى كابن السعود قد يهدد مركز بريطانيا فى عدن ، أو فى بعض ولاياتها المحمية المجاورة لليمن ، وهى التى كانت منذ بعيد موضع خلاف بين الامام والانكليز ، ثم سوى منذ أشهر بمعاهدة الصداقة البريطانية اليمنية . ومسألة المواصلات الامبراطورية من أدق مهام السياسة البريطانية .

***

بيد أنه إذا كانت السياسة البريطانية تقف موقف الانتظار والتحوط ازاء تطور الحوادث فى الجزيرة العربية . فليس هنالك على مانعتقد ، مايدعوها للتدخل المباشر فى سير هـــذه الحوادث . فعلائق ابن السعود وبريطانيا مازالت حسنة . والانكليز يثقون بابن السعود وصراحته وعهوده التى برهن فى فرص عديدة أنه يحترمها ويعمل على تنفيذها ، ولا نعتقد أن ابن السعود يفكر فى الوقت الحاضر على الاقل فى الاقدام على مناوأة سياسة بريطانيا أو مصالحها فى أية منطقة من المناطق التى تسيطر عليها فى أطراف الجزيرة ، لأن ابن السعود يحرص دائما على صداقة بريطانيا . وربما كان الانكليز يؤثرون دخول اليمن فى طاعة ابن السعود ، ويؤثرون سياسته القائمة على الحزم والصراحة وحسن التقدير ، على سياسة رجل كالامام يلقون من صلابتـــه وتردده وعدم اعتباره بالحقائق الواقعة كثيرا من المتاعب فى عـدن وولاياتها المشمولة بالحماية البريطانية . هذا الى أن ابن السعود قد صرح على لسان ممثله فى لندن أن يحترم الحقوق القائمة والمعاهدات المعقودة ويبذل وسعه لحماية أرواح الاجانب ومصالحهم فى البلاد التى تفتحها جيوشه ، ولا ريب أنه فى حالة استيلائه على اليمن سيحترم نصوص المعاهدة اليمنية البريطانية الأخيرة ، وسيحترم الحالة القائمة فى ولايات عدن المحمية ؛ ومن جهة أخرى فانه لن يفوت الانكليز أن ينتهزوا فرصة انشغال الامام بغزو أراضيه فيعملوا على توسيع احتلالهم لتلك الولايات بما يطابق خططهم التى لبث الامام طويلا يقف فى سبيلها .

ليس هنالك اذا مايخشى وقوعه من جانب السياسة البريطانية للتأثير فى مجرى الحوادث الحاضرة فى جزيرة العرب . وهذا ماتؤيده التصريحات الرسمية التى ادلى بها السير جون سيمون وزير الخارجية البريطانية فى مجلس العموم فى شأن حوادث الجزيرة العربية ، فهو يؤكد فيها أن بريطانيا العظمى ستقف ازاء هذه الحوادث موقف الحياد الدقيق وأن اجتماع السفير البريطانى بابن السعود لم يكن يقصد به الا التأكد من حماية المصالح البريطانية والرعايا البريطانيين فى الجهات التى تفتحها القوات السعودية . وهـــذا ما تؤيده أيضا الصحف الانكليزية وأقوال الكتاب السياسيين وتنويههم بحزم ابن السعود ومقدرته وصداقته لبريطانيا العظمى

أما السياسة الايطالية فهى على العكس تخشى تطورات الحوادث الحاضرة وترى فيها خطرا على مشاريعها ومصالحها حسبما بينا . وقد كان الأمام صديق السياسة الايطالية ، وكانت ايطاليا تتمتع فى اليمن بمركز خاص تعلق عليه اهمية كبيرة لتنفيذ مشاريعها فى بلاد العرب ، فسقوط اليمن فى يد ابن السعود يقضى على هذه الآمال والمشاريع ، وقد ارسلت ايطاليا كما ارسلت انكلترا بعض

بوارجها الى مياه اليمن لحماية مصالحها . ولكن هل تذهب ايطاليا الى أبعد من ذلك فتحاول التدخل المباشر فى سير الحوادث فى اليمن ؟ من المعروف ان ايطاليا كانت تمد الامام بالاسلحة والذخائر والضباط الفنيين ، ولكن استيلاء القوات السعودية على الحديدة وساحل اليمن كله تقريبا يقفل هذا الباب فى وجه ايطاليا ويقطع هذا العون عن الامام . ولسنا نعتقد ان إيطاليا تستطيع الاقدام على مثل هذه المغامرة فى الظرف الحاضر ، فتحاول الدفاع عن اليمن والاشتباك مع القوات السعودية الغازية فى حرب لا تؤمن عواقبها ، اولا لأن بريطانيا العظمى لا تستطيع السكوت على مثل هذا التدخل ولا بد ان تقاومه بكل قواها ، وليس من اليسير ان تقدم ايطاليا على تحدى بريطانيا العظمى فى مثل هذه الظروف التى يفيض فيها الأفق الدولى بالمشاكل الخطيرة ، وثانيا لأن ايطاليا تعلم من تجاربها القاسية فى طرابلس ، ان الاعمال الحربية فى الصحارى والهضاب ليست يسيرة على الجنود الاوربية ، وقد كانت هضاب اليمن مدى أجيال حصونا مغلقة فى وجه الجيوش العثمانية المدربة على ارتياد الهضاب الوعرة ، ومن المرجح ان تلقى الجيوش السعودية ذاتها ، وهى جيوش الصحراء ، صعابا كبيرة قبل ان تستطيع الوصول الى صنعاء والاستيلاء على اليمن . واذا فكل ما يمكن للسياسة الايطالية ان تقوم به فى الوقت الحاضر ، هو أن تحاول المضى فى خطتها من معاونة الامام بالاسلحة والذخائر والاموال

على أنه يبقى بعد ذلك كله ان نتساءل عما إذا كان ابن السعود يعتزم حقا ان يستولى على صنعاء وان يتم غزو اليمن . ان الجيوش السعودية تقف الآن عند الحديدة من جهة البحر ، وتطوق شمال اليمن ، وليس فى الانباء الأخيرة ما يدل على انها ستتابع زحفها فى الحال ، بل يرجح ان تنتظر حينا حتى تتم اهباتها وتقوى مؤخرتها وقد يرى ابن السعود فى تلك الاثناء ما يقنعه بالوقوف عند هذا الحد من الظفر وارغام الامام على قبول شروطه ومطالبه ؛ وقد ينزل عند صوت العالم العربى والاسلامى فيقبل وقف الحرب والاتفاق مع الامام ، اذا رأى انه يستطيع بذلك اجتناء جميع الثمرات التى يخوله الظفر اجتناءها .

وسنرى فى الاسابيع المقبلة ما تسفر عنه هذه التطورات الخطيرة فى مصاير الجزيرة العربية .

محمد عبد الله عنان
المحامى

مختـــار . . !

للدكتور سامى كمال

كان بالأمس ماردا ، فثوى اليوم راقدا . . . كان فلم يكن ولن يكون ، بعد ان أضاء على الانسانية جميعها بذلك النور الفنى الخالد .

لقد وصل ماضينا بحاضرنا و بمستقبلنا ايضا ، فكان الحلقة المتينة ، وملأ ذلك الفراغ الهائل المظلم القاتم الذى نام اثناءه ابو الهول ونام المصريون بجواره ، الى ان عادت اليهم الروح وثارت ثورتهم فهبط عليهم من السماء ، وكان قائداً لخيال ذلك الشعب ، وحقق أمله فى النبوغ . وأنهض ابا الهول بعد طول رقاده بجانب الفراعين الذين حققوا لربوضه الهدوء والنوم . رمزوا به لقوة بأسهم وشدة بطشهم ، ولم يحتاجوا بعد اليه وقد خضع الكل لسلطانهم فنام وملأ جفونه نوما ، الى ان شعر القوم باحتياجهم اليه فأنهضه مختار وجعله ينظر محدقا عازما شاعرا ما سوف يطلب منه اليوم وغدا

إن من لم يسمع لفظ فرعون من فيك يامختار لم يفقه من هو فرعون . . هو لفظ كنت تسوقه من شعورك العميق ينبىء بالقوة وبالجبروت

ومن لم يسمع منك لفظ الثورة التى قامت بهذا البلد الذى شعرت انك من ترابه او من التراب الذهبى لهؤلاء الفراعين ... من لم يسمعك تحدث عن الثورة بلفظها الذى كنت تنطق به فيصير تمثالا من صنع بصيرتك وحسك وقلبك الكبير ... ان من لم يسمعك لم يضطرب قلبه من هولها .

لم ارك يامختار الا وتلك الروح مخيمة عليك وظلت غذاءك . . . وانت يامصر ، يا من تقفين بجانب القوة الناهضة ، انت الروح وابو الهول الجسد ، علام تنظرين ؟ ألى الشمس ام الى ابنائك ؟ ألى سلام ام الى حرب ؟

تخيلك على ضفاف السين وقلبه ينبض بحبك ـ تمثل أجمل امرأة امام عينيه فلا يرى غيرك ، يطير بخياله اليك لانك الغاية . عاش ينشد حبك طول طريقه . هذا نقابك تحاولين فيه بيسراك حجب بعض الضوء ، لتحقق النظر وتتعرفى أسرار ماسيأتى لك به القدر . .

هذه الحركة المصرية الصميمة انشودة ستصدح مع الزمان . . . تراك جميع المصريات فيتعرفنك ويعجبن ويفخرن ، لانك ترفعين الرأس الى السماء ، وتسفرين عن وجه لا يدل على غير القوة واطمئنان الوصول الى الغاية التى تتطلبين الى ابنائك ، وعودك القوى هو هو ، صلب حار فيه اللب . . . أفنا أم كبرا أم مثالا يحتذى ؟ ام هو تراث من فخر مضى ؟ ...

كل من رآك يعرف أن قلبك قد من الثورة ، وأن عينيك انفتحتا لهذا النور الذى كنت تتوقين اليه

هذه روحك يامختار نقرأها وسنقرأ كل يوم فيها جديدا ، و بعد آلاف السنين سيقرأون فيها جديدا .... ويطلب المصريون لك الرحمة حينما لا يذكر من احياء اليوم الا القليل ..

نم هادئا فقد أديت الرسالة

فن مختار وروحه

أوجد مختار فنا خاصا وطبعه بطابع تكاد تتعرفه عندما تلقى بنظرك الى أية قطعة من قطعه البديعة التى خلفها ، ولتدرك ذلك الطابع تماما تصور ذلك الفنان القوى ، وقد نشأ فى قرية مصرية ، أفعم قلبه بحب الفلاحين ، وملأ عينيه من تلك التماثيل المصرية القديمة ، ثم من ذلك الفن المصرى فى جميع صوره ، وقد امتاز بالبساطة وجمال التنسيق وعدم الاكتراث بما يقع تحت الحس تماما ، غير ناظر الا الى الموضوع المطلوب تصويره فينتظم التصوير فى أسلوب واحد ، كان الجمال فيه لتلك الخطوط والمسطحات المنتظمة

أخذ الغربيون بذلك الفن عندما قاموا بتمثيل رموزهم العسكرية بعد الحرب العظمى ، فلا ترى الا مستويات لا تستوقف النظر ، إنما يحرض التمثال فكرك لتبحث فيه عن معنى ينبىء به

تلك كانت آية الفن عند قدماء المصريين ، فلما انتقل منهم الى اليونان فالرومان فالغرب أخيرا ، عمدوا الى تصوير الجمال كما يجب أن يكون فى الواقع لا فى الخيال ، فجمال المرأة أو الرجل صار تمثيلا لبعض النساء أو الرجال فعلا

وعند ما انتهت الحرب العظمى لم يرد الفنانون فى جميع العالم أن يتقيدوا بما كان نظاما وأسلوبا للفن فيما قبل الحرب ، وأخذوا يبحثون عن فن عصرى لم يستقر الى اليوم نظامه ، فانك ترى لهم فى كل يوم اتجاها وميلا .

اثناء تجاربهم هذه تطاير بعض الشرر الفنى من مقبرة

توت عنخ آمون ، فدققوا النظر من جديد فى ذلك الفن المصرى القديم ونحوا نحوه ، وصاروا لا يقفون فى التمثيل على مايرون بعيونهم ، انما عمدوا الى الرمز فى النحت والتصوير لترسل مخيلتك فى البحث عما يرمزون ، فلا يقف نظرك على تفاصيل الجسم أو الرداء بل يلجئك الفنان الى البحث عما يريد من معنى ، وليس من السهل الوصول الى مايريد والوقوف عليه . ويمتاز الفنان الماهر بأن يقدم لك ماتقرأ فيه كل يوم جديدا . ألم يحدثنا الصديق الدكتور طه حسين بأن هذا مانحا نحوه بعض شعراء الفرنسيين ؟ عاش مختار فى هــــذا الجو وأدرك سر الاقدمين المصريين ، فعمد بالمعاول الى رسم الطريق للمجددين ؛ وبعث من جديد فنا كان يشعر أنه يفيض من حبه لمصر ، فغنى على قيثارته (القاهرية) و (الفلاحة) و (بنت الشلال .)

أنظر الى تلك القاهرية تختال فى ردائها تجدها الملاك الطاهر فى حلم النائم لا تفتر تنظر اليها ، ولا يرتد نظرك عنها ، ثم تعاودك طيفا تحار فى فهم روحها ولا تجسر أن تبادرها بالسؤال .

أما بائعة الجبن فانك تراها فى صور الاقدمين ، لكنها لا تحمل شيئا بل ترمز الى الروح ، وهى رافعة ذراعيها على هــذا النمط . فقدها مختار من قطع بائعات الجبن جميعا ، فهى رقيقة حقا لكنه اعطاها الصلابة البرنزية وتركها للخلود ...

رأى مختار مثال الشيخ البلد فى دار الآثار المصرية ، فكان جديرا بان يصنع مثالا لامرأته ، انظر اليها تجد جمالا ووقارا يجلبان الاحترام وقوة معنوية تسحر اللب ....

وبنت الشلال هى تخليد بديع ملىء بروح ذلك العنصر من سكان الشلال ، اهتدى اليها مختار عند وادى الجرانيت فأنطقها تترنم بنشيد النيل والصحراء والشمس المحرقة والحياة الحزينة .....

وتلك المرأة فى القيلولة تجد فى دار الآثار شبيها لها امرأة كانت تخبز ، غلب عليها النعاس امام الفرن فنامت . هى صورة لبعث القديم واحياء الجديد من الفن

عاش مختار سنين فى باريس ، وماكان يأمل فى الحياة بقدر ماكان يأمل أن يكون له بيت فى قرية مصرية بين تلك المصريات ويعبر عنهن بالملكات اللاتى أحب حركاتهن وسكناتهن ، يحملن الماء وغير الماء ، يأكل مما يحلو لهن أكله ، مرتديا ذلك السروال الواسع الاكمام

وماكان يلذ له التمتع بأى شىء وحيدا ، فان دعاه داع الى الغداء مثلا اشترط لذلك دعوة اخوانه جميعا وان لم يعرفهم جميعهم الداعى

لقد كان يحب ان يعيش بين القلوب لا بين الاجساد . ما عاش مختار لنفسه ، بل عاش للفن ـ ان كل ماتراه اليوم بمصر من مجهود فنى ، هو فى الحقيقة اثر من آثاره — فقد كان المحرك لارسال البعثات الفنية ، وفى فتح مدرسة الفنون الجميلة ، وفى اقامة المعارض والاشادة بذكر الفنانين ، كان يحلم بايجاد ادارة للفنون تحت رياسة وكيل ثان للمعارف على نسق النظام المتبع فى فرنسا

وبالاختصار كان مختار روح الفن فى مصر نفثه فى جميع المصريين حتى نطقوا باسمه جميعا ، وصارت « نهضة مصر » عنوانا لكل صاحب مهنة وفن فى القاهرة ، وفى جميع القرى المصرية ، فكفاه تمجيدا تمجيده ليوم من ايام مصر .

سامى كمال

السفسطائيون

للاستاذ زكى نجيب محمود

.... اذن فقد كانت آسيا الصغرى مهداً تقلب فيه الوليد الجديد وظل حينا يتعثر ، حتى استقام بعد لأى على قدمين لم ترسخا الا فى عسر شديد ، فقد حدثتك فى فصل سابق أن العقل الناشىء لم يكد يستيقن من وجوده ، حتى أرسل البصر يستطلع أصل الوجود ، وجاهد ما استطاع لكى يصل فى تعليله الى مبدإ معقول ، فالتمسه فى الماء والهواء ، ولكنه أفلس ، ثم عدل عن مادة الكون الى جوهره ومعناه ، فأفلس كذلك ، وهكذا لبث اليافع فى عثاره ، يستقيم ليكبو ، ويكبو ليستقيم ، حتى كانت غارة الفرس الداهمة ، التى اجتاحت المستعمرة اليونانية فى آسيا الصغرى ، ففزع الفلاسفة رعبا ، وهاموا فى فجاج الارض فرادى يحملون قبس الفكر ، حتى انتهى طرف منهم الى بلاد اليونان ...

أنظر ! فهذى بلاد اليونان قد صاغها الله يدا مبسوطة ، كأنما تريد أن تلقف بأصابعها الناتئة فى مياه البحر حضارة القدماء من الجنوب والشرق ، بسطت كفها فتناولت من مصر مدنية كانت حينئذ قد بلغت شأوا بعيداً ، واستعارت من بابل وأشور وآسيا الصغرى شذرات منثورة من العلم والمعرفة .. وقد أراد الله لتلك

البلاد اليونانية أن تكون وعرة المسالك ملتوية الأديم ، تنهض على صدرها الحزون وترتفع الجبال ، فانحصرت بين شعابها طائفة من الأودية ، كانت فى عزلتها كالأوكار ، نشأت فى أكنافها مدن متفرقة ، ليس الى اتصالها سبيل هين ميسور ، فسلكت كل واحدة منها طريقا بعينها فى الدين والثقافة ونظام الحكم . ولبثت تلك المدائن متنافرة متناكرة ، لا تلتقى فى وحدة قومية ، اللهم الا اذا أغار عليها مغير يطمع منها فى غزو وسلطان . وذلك ما حدث عند ما جاءت من الشرق جيوش الفرس يقودها عظيمهم دارا ، عندئذ انعقدت الخناصر على التحالف بين اثنتين من تلك المدن اليونانية ، كانتا أشدها بأسا ، وأوفرها قوة وأبلغها رقيا وتقدما ، تحالفتا على أن تعد إحداهما الجيش ، والاخرى تهيء الاسطول ، ومن ذا تظن أن ينهض بتهيئة أسطول ضخم قوى غير الأثينيين ، الذين لهم من موقعهم صلة وثيقة بالملاحة وركوب الموج ، وأما الأخرى - اسبرطة - التى عرف رجالها بالبأس والقوة ، فقد جهزت جيش الدفاع .

وقعت الحرب وانتصر اليونان ، فعاد الأثينيون بأسطولهم وقد اتخذوه بعدئذ أداة للتجارة ، ظلت تجوب جواريه المنشآت فى جوف البحر الأبيض ، تحمل منها واليها التجارة من كل صوب ، وما هى الا أن تزخر أثينا بتلك التجارة الصادرة الواردة ، ويعلو ذكرها فى الاسواق ، وتصبح مركزا تلتقى عنده الأقوام والاجناس ، لكل قوم دينه ، ولكل جنس ثقافته . واذا بهذه الألوان المختلفة يضطرب بعضها فى بعض ، ويخالط بعضها بعضا ، فتمتزج الثقافات جميعا والديانات جميعا فى صعيد واحد ، ويكون لذلك كله نتيجة محتمة ، هى المقارنة والتحليل ، وبالتالى نشأة الفكر الصحيح . وهذا بديهى معقول ، فالمذاهب المتضاربة ينسخ بعضها بعضا ، وتدنو بالناس الى الارتياب والشك فيها جميعا

واذن فقد كانت أثينا ، عند ما طوح القدر بذلك القبس الخافت من آسيا الصغرى بيئة صالحة وتربة خصبة ، يستطيع أن يستقر فى أرضها ذلك الشعاع الضئيل ، حتى اذا ما امتد به الزمان قليلا ، سطع لامعا وهاجا فى عهد الاساطين الثلاث : سقراط وافلاطون وارسطو

حمل انكسجوراس الى أثينا تلك البذرة الاولى للتفكير الفلسفى وقد كانت وليدة الافكار السابقة التى نشأت فى آسيا الصغرى وجنوب ايطاليا . فلعلك تذكر أنى وقفت بك فى تتبع السلسلة الفكرية عند المذهب الذرى ، الذى رد الكون الى ذرات دقيقة تجتمع وتأتلف فتكون هذا الشيء أو ذاك ، ولكنك تستطيع أن تسأل أشياع ذلك المذهب ، ما الذى يبرر عقلا أن تجتمع طائفة معينة من الذرات فى صورة ما دون صورة أخرى ؟ خذ الانسان مثلا ، فهو عندهم مجموعة ذرية لا أكثر ولا أقل ، فهل تظن أن من اليسير على عقل منطقى أن يقنع بان تلك الذرات الجامدة تأتلف بطريق المصادفة العمياء ، فتنتج ملايين الأفراد على غرار واحد وفى هذه الدقة من التنسيق ؟! كلا ! يستحيل ألا يكون وراء هذه الذرات المادية عقل مدبر حكيم ، يملك تصرفها فيجمع بينها ثم يفرق جمعها تبعا لما يقتضيه قصد معين وهدف منشود . . . فى الكون اذن عنصران متميزان : مادة ترى بالبصر وتحس بالأيدى ، وعقل خفى يكمن وراء أستار المادة ، يسلك بها ما شاء من سبل ، وهو حكيم رشيد ، يعرف أين يسير بمادته فى سبيل سواء . . . هذا ما حمله انكسجوراس الى أثينا ، فبدأت الفلسفة اذن طورا جديدا . . . لم يعد العقل يلتمس أصل الكون وعلته فى ماء ولا هواء ، ولم يعد يلتمسه فى قاعدة رياضية ، أو فى ذرات تفترق وتلتقى على غير هدى ، بل جاوز العقل فى جولته حدود الطبيعة المحسة ، وضرب فيما وراءها ، واذن فما أجدرنا أن نضع انكسجوراس فى مرتبة من تاريخ الفلسفة عالية رفيعة اذا كنا نفرق بين مراتب رجالها . فهو بين الفلاسفة أول من رأى فى الكون رأيا ناضجا ، يصدر عن رشد ووعى ، بالقياس الى اسلافه الذين لم تزد أقوالهم على سذاجة الطفولة الحالمة

ترى من هذا كله أن العقل قد لبث طويلا يبحث فى حقيقة الكون فانتهى الى نتائج متنافرة متباعدة ، وتشعبت عليه السبل وكثرت الحلول ، فكان طبيعيا أن يقف منها جميعا موقف الشك والريبة فكلها حق ان شئت . وكلها باطل ان شئت ، فلنطوح بها هشيما تذروه الرياح ، ولنترك الكون وما يحوى لا نطرقه بالبحث الآن ، ولكن موضوع بحثنا منذ اليوم هو الانسان ، فهو سيد الأشياء ، وهو وحده الفيصل الحكم ازاء هذه المذاهب الفكرية ، يعتنق منها ما يشاء ؛ ويطرح ما يشاء فى زوايا الاهمال . وليس لأحد سلطان على أحد فى ان يوحى اليه بفكرة أو رأى ، فما تراه انت حقا فهو حق ، وما تراه

أنت باطلا فهو باطل .. ما تلمح فيه النفع لشخصك فهو الفضيلة العليا وكل ما يناقض هواك فهو رذيلة وشر، لا تأبه بتقاليد، ولا تصدق الناس فيما يذهبون اليه من خير وشر، فأنت دولة وأنت مالكها، لك أن تحكم فيها بما تشاء وتهوى ... انظر ! هذان رجلان يشخصان ببصريهما الى الشمس تنحدر الى خدرها ساعة الغروب فخلعت على الأفق غلالة حمراء، فيفتن جمالها واحدا منهما حتى ليكاد يطفر راقصا مفتونا بما يرى. وأما الآخر فينظر اليها شزرا واستخفافا؛ بل انه ليسخر من صاحبه، فليس ثمت فى الشمس جمال ولا شيء يشبه الجمال !! فمن ذا يستطيع أن يقنع أحد هذين بخطأ رأيه أو بصوابه؟ ولم لا يكون كلاهما على حق؟ واذا كانت الأهواء والميول والمشاعر متضاربة متناقضة، لا تجتمع فى نزعة واحدة، ولا يمكن ان تدور رحاها حول قطب واحد، أفلا يكون شططا منك واعتسافا أن تقسر تلك المجموعة المتنافرة على أن تلتقى كلها عند حقيقة واحدة ؟! ومن ترى يكون خليقا بمنصب الحكم بينى وبينك فيما نحن فيه مختلفان؟ كلا ! ليس ثمت حقيقة واحدة، بل الحقائق فى الدنيا بقدر ما يضطرب فيها من أفراد البشر، فليذهب كل فرد مذهبه فى الكون وفى ظواهر الكون، ولا يخشين بأسا من نقد أو تجريح لما يذهب اليه، فهو لا يقل حقا وصوابا فيما يرى عن أى رجل آخر، بالغا ما بلغ من العبقرية والنبوغ... تلك هى العقيدة التى حملتها طائفة من الناس فى أرض اليونان، وأخذت تجوب بها الانحاء والأرجاء، تذيعها فى الناس فى ذلاقة وطلاقة وحسن بيان، حتى اجتمع حولهم طوائف الشباب جميعا، يتلقون عليهم ذلك الشك، ويتعلمون عنهم طرائق التشكيك واساليب المحاورة والمداورة فى الخطابة والحوار لقاء أجر يعظم ويضئول تبعا لما يتلقى الشاب من عدد الدروس ... وانما أعنى بتلك الطائفة جماعة السفسطائيين، ولم يكن ذلك الاسم عندئذ يحمل ما يحمله اليوم من تحقير، بل هم جماعة أحبوا الحكمة كما يحبها كل فيلسوف، لولا هذه الزلة التى سقطوا فيها فأسقطت من قدرهم، وهى تقويم الحكمة بالأجر

وأبرز أولئك السفسطائيين رجال ثلاثة : بروتاغوراس وجورجياس وهبياس، ولقد أنكر ثانيهما وجود الأشياء جميعا وحتى لو فرضنا جدلا أن ثمت فى الكون أشياء لها حقائق ثابتة، فلا يمكن أن نوقن بأن الصورة الذهنية التى نعرفها لتلك الاشياء مطابقة لها تماما، فمن الجائز، بل من المرجح، بل من المؤكد أن حقيقة هذا القلم الذي بيدي تخالف في وجوه كثيرة صورته الذهنية التى أحملها له ... وهب أنك تستطيع أن تصل الى معرفة مطابقة للواقع فانه يستحيل عليك أن تنقل هذه المعرفة للآخرين، لأنك مضطر الى التعبير عنها فى كلمات، ولا أحسب فى الدنيا أحدا يشك فى أن اللفظ شيء والمعرفة نفسها شيء آخر. وإذن فمهما قلبت الأمر على وجوهه فلن تصل الا الى نتيجة واحدة، وهى أنه لا يمكن أن يكون فى الوجود حقيقة موضوعية مجردة يجمع عليها، بل الحقائق ذاتية تختلف باختلاف الاشخاص، واذن فمن العبث أن يستمع فرد الى رأى فرد آخر، ولا يجوز لك أن تصغى لغير ما تراه وتشعر به، ولا تختار من كل ذلك الا ما تصيب عنده نفعا

أجمع السفسطائيون على ذلك، ولكنهم ذهبوا فى السياسة مذهبين : فريق يدعو الى العودة الى أحضان الطبيعة واستيحائها فيما يجب أن يرسم للجماعة من نظام وقانون — كما فعل روسو فيما بعد — ولما كانت الطبيعة عندهم تسوى بين الافراد، لا ترفع أحدا ولا تخفض أحدا، اذن فسحقا لهذه المدنية التى تجعل من الناس طبقات بعضها فوق بعض، فذلك نظام مفتعل دخيل على طبيعة الانسان جدير بنا أن ننبذه فى جرأة حازمة، ولا ينبغى لنا أن نأبه لهذا القانون الذى تواضعت عليه الجماعة، لأنه من وضع القوى، فرضه على الضعيف فرضا لا يبرره حق ولا تجيزه عدالة، انما القانون العادل هو الذى ينزل الأفراد منزلة سواء، ومعنى ذلك أن تكون الديمقراطية مثلا أعلى للحكم.

وأما الفريق الآخر، فقد دعا الى النقيض — كما فعل نيتشه فيما بعد — الست ترى من الناس فيلسوفا عبقريا بجانب الغبى الأبله، أليس منهم الضعيف الخائر الى جانب القوى ذى العود الصلب؟ اذن لم تسو الطبيعة بين الافراد، كلا ولا الاخلاق ابتكرها القوى انما هى على النقيض من ذلك، خدعة أوحى بها الضعيف ليحد من قوة القوى وسلطانه.. ولا يتردد هذا الفريق فى الدعوة الى الارستقراطية فى الحكم، وهذا الهجوم العنيف على الديمقراطية وحكمها يصور لنا نهوض جماعة من الأغنياء الأذكياء، أرادوا أن يغتصبوا من الشعب النفوذ والسلطان، بحجة افلاسه فى ادارة البلاد

فأنت تستطيع أن تسخر من مذهب السفسطائيين، ومن حقك أن تهمله اهمالا وان تنبذه نبذ النواة، لانه خطر على الاجتماع، خطر على الأخلاق، خطر على العقائد، خطر على كل نواحى الحياة الانسانية، لأن قوام هذه اليقين والايمان فى مجموعة من الحقائق التى تفرض على الناس فرضا، سواء صادفت هوى من

نفوسهم أم لم تصادف ،أما ان يكون الافراد احرارا فى اختيار الفضائل التى تتفق واهواءهم فانحلال وفوضى ، يقوضان أركان المجتمع فى يوم وليلة .

تستطيع ان تقول هذا فيما ذهب اليه السفسطائيون، ولكنك لن تستطيع ان تنكر عليهم أنهم كانوا مرآة مجلوة انعكست عليها صورة الحياة فى عصرهم ، فقد تعددت العقائد الدينية فشك الناس فى صحة الأديان ، وقد تعددت الآراء الفلسفية فشك الناس فى ثبوت المعرفة . وقد برهنت الديمقراطية فى أثينا على أنها عاجزة بعض العجز عن تصريف شئون الدولة فتزعزع الايمان فى أسلوب الحكم

شك فى الدين ، وشك فى المعرفة ، وشك فى نظام الحكومة، لايمكن أن يلد الا طائفة كهؤلاء السفسطائيين ، ينكرون الحقائق جملة ، ولا يؤمنون الا بالمنفعة الشخصية والحقيقة الذاتية .

ولكن أراد ربك ألا يطول الأمد لهذا الانحلال الفكرى، فسلط عليه ذهنا عاتيا جبارا ، مازال به نقدا واصلاحا ، حتى امحى وخلص من شره الانسان ، ومن يكون هذا غير سقراط ! ؟

زكى نجيب محمود

٤ - بين المعرى ودانتى

فى رسالة الغفران والكوميدية المقدسة

بقلم محمود احمد النشوى

الجحيم فى الروايتين

اذا تحدث الادباء فيما بينهم عن جحيم دانتى . فانما يريدون تلك الكوميدية التى لم تقصر نفسها على الجحيم تذكر طبقاته وحراسه ومعذبيه ، بل ضمت جوانحها ثلاث نواح : الجحيم l'inferno ، المطهر أو الاعراف Ilhpurgatorio ، والفردوس Il paradiso ودانتى فى كل ذلك يبلغ نهاية الأجادة . بيد أنه فى وصف الجحيم كان أكثر إسهابا وأشد قوة ، فطغى اسم الجحيم على الرواية كلها واستأثر بالاسم وحده بين كثير من المتأدبين .

ولكن المعرى لم يعن بجهنم كما عنى بالفردوس . ولم يسهب فى وصفها كما أسهب فى وصف الجنة . ولعله ما كان يريد أن يعرض للجحيم لولا رغبته أن يتم لابن القارح نعيمه . وأن يعظم شكره . فقد قال المعرى بعد أن استكمل لابن القارح كل لذائذه فى فراديس الجنان : ويبدوله أن يطلع على أهل النار فينظر إلى ما هم فيه ليعظم شكره على النعم بدليل قوله تعالى « قال قائل منهم إنى كان لى قرين . يقول ائنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون . قال هل أنتم مطلعون . فاطلع فرآه فى سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين» فيركب ابن القارح بعض دواب الجنة ، ويسير بهاصوب الجحيم معرجا فى طريقه على (جنة العفاريت) يلتمس من أشعار أهلها متحدثا مع (الخيثعور أحد بنى الشيصبان ، ومع أبى هدرش) مارا على الحطيئة عند شجرة قميئة ، وليس عليه نور سكان أهل الجنة فيسائله عن سبب دخوله الجنة ، فيقول له الحطيئة : بالصدق فى قولى :

أبت شفتاى اليوم إلا تكلما بهجر فما أدرى لمن أنا قائله
أرى لى وجها شوه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

ثم يغذ فى سيره حتى يشرف على جهنم فيرى امرأة تطلع على من فيها . فيقول لها من أنت ؟ . فتقول : أنا الخنساء السلمية . أحببت أن أنظر الى صخر . فاطلعت فرأيته كالجبل الشامخ . والنار تضطرم فى رأسه ، فقال لى : صح زعمك فى ، يعنى قولى :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

ثم يتركها متغلغلا فى طبقات الجحيم .

طبقات الجحيم فى الروايتين

لم يعن المعرى بتقسيم الجحيم الى طبقات ، لكل طبقة من العصاة والمذنبين جزء مقسوم . ولم يسهب فى وصف أهوالها وآلامها إسهاب دانتى . بل كان همه لقاء الشعراء وحوارهم فيما نسب إليهم من شعر . وفى تصحيح الرواية ، وبيان الوجوه النحوية واللغوية والصرفية . فلم تكد تقع عينه على امرىء القيس حتى يسائله عن إعراب (يوم) وعن تخفيف الياء من (سى) وتشديدها فى قوله

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

ثم يقول : ليت شعرى ما فعل عمرو بن كلثوم ؟ فيقال ها هو ذا من تحتك ان شئت أن تحاوره فحاوره ، فيحاوره فى (سخينا) من قوله . .

سنعشعة كأن الحص فيها اذا ما الماء خالطها سخينا

أمن السخاء . أم من الماء السخين ؟ . الى كثير من حوار وجدل ، ذلك سبيله ، سنفرده بالحديث حين الكلام عن الحوار فى الروايتين .

ولقد بذل دانتى مجهودا عظيما فى تقسيم جهنم ، فقسمها إلى تسع طبقات اختص كل طبقة منها بطائفة من المعذبين ، ووصف ما هم فيه من عذاب وآلام وصفا مؤثرا بليغا . فى الطبقة الأولى رأى الملائكة الذين لم يطيعوا الله ولم يطيعوا ابليس Lucifero حينما تمرد على ربه . انتظارا للنتيجة حتى يتبعوا الغالب فى زعمهم ؛ ثم رأى خلقا كثيرا عريت أجسامهم ، وانتابتها أفواج من الذباب والزنابير تدمى جلودهم ، وتنهل من دمائهم .

وفى الطبقة الثانية رأى المحبين الذين أسرفوا فألقوا أنفسهم فى حمأة الخطيئة . ومن بينهم باولو وعشيقته فرنشسكا التى قصصت خبرها فى العدد الماضى .

وفى الطبقة الثالثة رأى البخلاء والمسرفين يلعن بعضهم بعضا . ويقول الأولون للآخرين : لما ذا أسرفتم ؟ . فيقول الآخرون : للأولين لما ذا قترتم ؟ . ولن يغنى تخاصم أهل النار عنهم من العذاب من شىء .

وفى الطبقة الخامسة يرى الحمقى الذين كان يستفزهم الغضب وهم يضرب بعضهم بعضا . ثم يرى المتكبرين والمتغطرسين فى بركة سوداء مترعة بالأوحال والأقذار ، وهم يتقلبون فيها خاشعين . ينظرون من الذل من طرف خفى .

فأما الطبقة السادسة فهى مقابر متراصة . تزخر بالأنين وباللهب ، وأعدت لمن أنكروا الله ووجوده .

وفى الطبقة السابعة نظر نهرا من دم يغلى يغوص فيه السفاكون ، وقاطعوا الطريق .

وفى الطبقة الثامنة رأى رجال الدين المتجرين به . والذين كانوا يدّعون أنهم خلفاء المسيح الذى أحب الفقر وآثره على الغنى . بيناهم يتساقطون على الحطام تساقط الذباب على العسل ، والكلاب على الجيف . ورأى المنجمين والمخادعين والمرائين . وهم يلبسون أثوابا باطنها رصاص يشوى الوجوه ، وظاهرها ذهب لامع براق جزاء وفاقا على ريائهم . ودهانهم .

أما الطبقة التاسعة فهى زمهرير تجمد ماؤه ، وضم فى أحشائه ابليس ، (ويهوذا الأسخريوطى) الذى نم على مكان السيد المسيح فدل اليهود عليه . ثم الذين خانوا أوطانهم مسهبا فى وصف هؤلاء الخائنين . مفتنا فى ذكر ما أعد لهم من جحيم ذى غصة ، ومن عذاب أليم .

حراس الجحيم

تحدث المعرى عن حراس الجحيم فى قلة وفى دعابة . ثم ذكر شيئا قليلا من أعمالهم ووظائفهم ، على حين أن دانتى ذكر لكل طبقة من طبقات جهنم حارسا أو جملة احراس ، وأسهب فى وصف أعمالهم وما يصبونه فوق رؤوس المعذبين من ويلات وآلام . وما أوجز المعرى فيما أحدثك عنه الا لأن المعرى رجل دعابة وظرف ، يريد أن يجتذب القارىء نحوه . وان يعلمه كثيرا من قواعد اللغة ومفرداتها دون أن يحس جفاف تلك الابحاث كما عهدناه يحاول ذلك فى (رسالة الملائكة)

وما أسهب دانتى الا لأنه رجل موتور ممن شردوه ونفوه فهو يريد أن يرى واتره يصب من فوق رؤوسهم الجحيم . ثم هو غرس (الكنيسة) يهوى أن ينفر الناس عن الخطيئة ما إستطاع لذلك سبيلا . فالمعرى يقص علينا عمل الزبانية بما حدثنا به عن بشار بن برد . وقد أعطاه الله عينين بعد الكمه لينظر ما نزل به من النكال . ولكن بشارا يأبى الا أن يغمضهما حتى تتوارى عنه الوان العذاب ، ففتحها الزبانية بكلاليب من نار . . . كما حدثنا عن الزبانية مرة أخرى اذ يغضب ابليس من حوار بين الأخطل وبين ابن القارح فيصيح فيهم قائلا : مارأيت أعجز منكم إخوان مالك ! فيقولون : كيف زعمت ذلك ياأبامرة ؟ فيقول ؛ ألا تسمعون هذا المتكلم فيما لا يعنيه ؟ فقد شغلكم وشغل غيركم عماهم فيه ، فلو ان فيكم صاحب نحيزة قوية لوثب وثبة حتى يلحق به الى سقر . فيقولون : لم تضع شيئا يا أبا زوبعة ليس لنا على أهل الجنة سبيل . فيشمت ابن القارح فى ابليس : فيقول ابليس عليه اللعنة : الم تنهوا عن الشمات يابنى آدم ؟ ولكنكم بحمد الله مازجرتم عن شىء الا وركبتموه . .

وكم كان المعرى طريفا حقا إذ يحدثنا عن نداء ابن القارح لمهلهل أخى كليب حينما يقف فى جنبات السعير وينادى : اين عدى ابن ربيعة ؟ فتجيبه الخزنة قائلين: زد فى البيان : فيقول: الذى يستشهد النحويون بقوله

ضربت صـــدرها الى وقالت   يا عديا لقد وقتك الأواقى

فيقول له خزنتها . انك لتعرف صاحبك بأمر لامعرفة عندنا به . ما النحويون؟ وما الاستشهاد؟ وما هذا الهذيان؟ نحن خزنة النار . فبين غرنك تجب اليه ، فيقول : أريد المعروف بمهلهل التغلبى أخى كليب بن وائل الذى كان يضرب به المثل : فيقولون له : هاهوذا يسمع حوارك فقل ما تشاء :

ذلك جل ماذكره المعرى عن حراس جهنم لم يسهب فيه ولم يطل

فأما داتي واسهابه ووصفه الغريب لكل شيطان من شياطين السعير فموعدنا بالحديث عنه العدد القادم .

يتبع — محمود احمد النشوى

فى القـــاهرة . . .

للآنسة فلك طرزى

— ١ —

مصر . . ! اى شفاه تلفظ هذه الكلمة ولا تجرى عليها ابتسامة وسرور ؟ . . أى نفس لا تغتبط لرؤية هذه الدرة الثمينة ، ولا تنعم بجوها المعتدل ونسيمها العليل ؟ . . .

اى قلب لا تسحره هـذه النسمات يرسلها الربيع فى انحائها فتنعش الازهار والرياحين ، وتكتسى الأشجار حلتها السندسية البديعة ، يداعبها النسيم فترقص اغصانها ، وينبعث من حفيفها هـذا الأريج العطرى ، وذلك العبير الذكى ، فيشيع فى جو القاهرة روح الحياة ، ويسرى فى عروقها دم الشباب ونشاطه . وأى إنسان لم تملك عليه القاهرة حسه بسحرها ، وتفتنه بطيب هوائها وعذوبة نيلها ، وأى قلب لم تستلبه هذه الغادة الحسناء بفتنتها عند اشراق شمسها فى الصباح الضاحى الجميل ، وعند غروبها غارقة فى لجة من دماء الشفق ، تقتتل فى حمأتها الملائكة والشياطين .

مصر التى حملتنى اليها اجنحة الخيال قبل ان تقلنى عربة القطار ، مصر التى سحرتنى الأحاديث عنها قبل ان تأنس العين بمرآها

أجل ! رأيتها ! وتمتعت بها اياما ، وقضيت فيها اسبوعا ، وتحققت لى برؤياها امنية من أحب الأمانى التى خفق بها قلبى .

مصر العظيمة الجبارة ، مصر الساحرة الفاتنة ، تبتسم لى وانا اطل عليها من نافذة القطار بين الشغف والوله ، هى تبتسم بانوارها الساطعة ، وتضحك باشراقها المهيب فى الصحراء القاحلة ، وطلعتها الفتية الجميلة بين باسقات النخيل ، والسهول المترامية الاطراف ، يسقيها النيل الهادىء الوديع رحيقا سائغا شهيا ، فترتشف منه حياة قوية فياضة ، ويتضاعف من مائه نموها وازدهارها

أى عين لا تطيل النظر فى ذلك النهر العظيم تستطلعه انباء الماضى الحافل ، وما تحمله هذه الانباء من الذكريات المفرحة المؤلمة ، وما تخفيه موجاته الهادئة من عبارات التقديس والتبجيل وهو يسير رويدا ، حاملا اثقالا مرهقة من الاسرار الغامضة ؟

هو يسير كما كان منذ آلاف السنين لا تعوق مجراه تقلبات الاجيال ولا نزعات النفوس . لكنه الآن ينظر بعينيه الحزينتين المغرورقتين بالدموع الى الانقلاب العظيم الذى وقع لبنيه ، ويشعر بهذا الألم القتال يحز فى قلوبهم ويدمى افئدتهم .

لقد شاهد النيل العظيم مجد مصر القديم وأبهة الفراعنة ، والآن يشاهد ذل بنيه وخضوعهم ، يشاهد زمام أمورهم بين أيدى العدو ، ويرى مفتاح ملكها الخالد فى قبضته ، بعد ان كانت تتقلب موجاته فى مدارج العز ، وتصطفق بين معالم الفرح والرخاء والابهة التى احرزها بنوه الاولون . اما الآن فهو يتقلب متهدما بين الأسى والألم ، كالشيخ ثكل أبناءه الواحد إثر الآخر ، فهو صامت خاشع ، يميد من ألم الحزن على ما أصابه الدهر فى بنيه ، . . يكتم لواعجه فى غوره العميق ، ويخفى دموعه الغزيرة بين طيات المياه فتزيدها اندفاعا وانحدارا ، فتبكى مصر نيلها الجبار ، ويبكى النيل وطنه العزيز ، وتئن مصر فى موسيقى موجه الخافت ، وتتوسل الى الله أن يرفع عنها نير العبودية فى أناشيده الناطقة الصامتة . . !

أى مصر ! . . لقد طبعت فى نفسى صورتك الخالدة ، ونقش اسمك المقدس على صفحة قلبى بحروف بارزة لا تنال منها الأيام .

اى مصر الحبيبة ! أى مصر : يادرة الشرق الغالية ، ومعبودة الجميع ، لقد ملكتنى وجعلت من نفسى أسيرة الابد لحبك وهواك . . !

دمشق — فلك طرزى

٦ - بديع الزمان الهمذانى

للدكتور عبد الوهاب عزام

ويلحق بالديوان شعره فى الرسائل والمقامات وذلك فى معظمه قطع قصيرة جيدة

ثم شعر البديع عامة سهل جيد المعانى منقح الالفاظ يتجلى فيه تهذيب الكتاب ، اذا استثنينا الشعر المرتجل وشعر الألغاز ونحوه مما لايقام له فى الأدب وزن ، ولكنه لايبلغ الدرجة العليا الا قليلا .

وبديع الزمان عند نفسه وعند الناس كاتب يقول الشعر ، ولكنه يرى أن البليغ من أجاد الصناعتين : يقول فى المقامة الجاحظية : « ان الجاحظ فى أحد شقى البلاغة يقطف . وفى الآخر يقف . والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره ، فهل ترون للجاحظ شعراً رائعا ؟

نثر الهمذانى

فى القرن الرابع الهجرى بلغت الكتابة العربية درجة من الصناعة والتأنق لم تخل بسلامتها ولم تذهب بمعانيها . تولاها كتاب قادرون صرفوها فى أغراض شتى ، واختاروا من الالفاظ والاساليب الجميل المحلى ، دون إغرب ولا اخلال بالمعانى . وتناولت الكتابة كثيرا من فنون الشعر ، كالمدح والهجاء والغزل والوصف : الى ما كان لها قبلا من الموضوعات ، فاتسع المجال لذوى الفكر الثاقب والقلب الشاعر ، لم يقيدهم فى النثر ماقيد الشعراء من الأوزان والقوافى والاصطلاحات . وكان كثير من الكتاب يلتزم السجع ، ومنهم من يكتفى بالازدواج ، وقليل منهم يرسل الكلام ارسالا . وفى هذا العصر نبغ أئمة الكتابة كابن العميد والصاحب والصابى والمهلبى وقابوس ، والخوارزمى ، وبديع الزمان . ولم يكن بديع الزمان كمعظم هؤلاء وزيرا أو ذا منصب ، فلم تستغرق كتابته أمور الدولة وكثرت فى رسائله الموضوعات الخاصة والعامة . واستبانت نواح من عصره فى السياسة والأخلاق ، والآداب وغيرها

وله فى الكتاب أصحاب المناصب رسالة الى أبى نصر المرزبان يقول فيها : كنت أطال الله بقاء سيدى ومولاى فى قديم الزمان اتمنى للكتاب الخير ، وأسأل الله أن يدر عليهم اخلاف الرزق ، ويمد لهم أكناف العيش ، ويوطئهم أعراف المجد ، ويؤتيهم أصناف الفضل ، ويركبهم أكتاف العز ، وقصاراى أن أرغب الى الله تعالى فى ألا ينيلهم فوق الكفاية ، ولا يمد لهم فى حبل الرعاية ، فشد ما يطغون للنعمة ينالونها ، والدرجة يعلونها ، وسرع ماينظرون من عال ، بما ينظمون من حال ، ويجمعون من مال ، وتنسيهم ايام اللدونة ، أوقات الخشونة ، وأزمان العذوبة ، ساعات الصعوبة ، وللكتاب مزية فى هذا الباب ، فبيناهم فى العطلة اخوان ، كما انتظم السمط ، وفى العزلة أعوان ، كما انفرج المشط ، حتى لحظهم الجد لحظة حمقاء بمنشور عمالة ، أو صك جعالة ، فيعود عامر ودهم خرابا ، وينقلب شراب عهدهم سرابا ، فما علت أمورهم ، حتى اسبلت ستورهم ، ولا غلت قدورهم ، الا خلت بدورهم الخ (١)

ويجمع نثر بديع الزمان الرسائل والمقامات :

١ - الرسائل

لبديع الزمان ثلاث وثلاثون ومائتا رسالة تناول فيها أغراضا كثيرة .

والرجل دراك حساس ، اذا سلط فكره الى موضوع اضاءت له جوانبه كلها ، ثم وضحت أمامه طرائق البيان ، فهو مبين عن كل معنى بطرق مختلفة من التصوير والتمثيل ، يسايره القارى فيها . وهو معجب متعجب . انظر قوله فى بعض السلاطين (٢) : « قد علم الشيخ أن ذلك السلطان سماء اذا تغيم لم يرج صحوه ، وبحر اذا تغير لم يشرب صفوه ، وملك اذا سخط لم ينتظر عفوه ، فليس بين رضاه والسخط عرجة ، كما ليس بين غضبه والسيف فرجة ، وليس من وراء سخطه مجاز ، كما ليس بين الحياة والموت معه حجاز ، فهو سيد يغضبه الجرم الخفى ، ولا يرضيه العذر الجلى ، وتكفيه الجناية وهى ارجاف ، ثم لاتشفيه العقوبة وهى اجحاف ، حتى إنه ليرى الذنب وهو أضيق من ظل الرمح ، ويعمى عن العذر وهو ابين من عمود الصبح ، وهو ذو اذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان ، ويحجب بهذه العذر وهو برهان ، وذو يدين يبسط احداهما الى السفك والسفح ، ويقبض الاخرى عن العفو والصفح ، وذو عينين يفتح احداهما الى الجرم ، ويغمض الاخرى عن الحلم ، فزحه بين القد والقطع ، وجده بين

(١) ص ٦٦ من الرسائل

٢) ص ٦٩ من الرسائل

السيف والنطع ، ومراده بين الظهور والكمون ، وامره بين الكاف والنون ، ثم لا يعرف من العقاب ، غير ضرب الرقاب ، ولا يهتدى من التأنيب ، الا لأزالة النعم ، ولا يعلم من التأديب ، غير اراقة الدم ، ولا يحتمل الهنة على حجم الذرة ، ودقة الشعرة ، ولا يحلم عن الهفوة ، كوزن الهبوة ، ولا يغضى عن السقطة ، كجرم النقطة ، ثم ان النعم بين لفظه وقلمه ، والارض تحت يده وقدمه ، لا يلقاه الولى الا بفمه ، ولا العدو الا بدمه ، والارواح بين حبسه واطلاقه ، كما الأجسام بين حله ووثاقه ، ونظرت فاذا انا بين جودين : إما أن اجود بياسى ، وإما أجود برأسى ، وبين ركوبين : إما المفازة ، وإما الجنازة ، وبين طريقين : إما الغربة ، وإما التربة ، وبين فراقين : إما أن أفارق أرضى ، أو أفارق عرضى ، وبين راحلتين : إما ظهور الجمال ، أو أعناق الرجال ، فاخترت السماح بالوطن ، على السماح بالبدن ، وأنشدت :

إذا لم يكن الا الاسنة مركبا   فلا رأى للمضطر الا ركوبها

ويقول فى رسالة كتبها الى القاضى ابى القاسم يذم احد القضاة (١)

« فولى المظالم وهو لا يعلم اسرارها ، وحمل الامانة وهو لا يعرف مقدارها ، والامانة عند الفاسق ، خفيفة المحمل على العاتق ، تشفق منها الجبال ، وتحملها الجهال ، وقعد مقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بين كتاب الله يتلى ، وحديث رسوله يروى ، وبين البينة والدعوى ، فقبحه الله من حاكم لا شاهد أعدل عنده من السلة والجام ، يدلى بهما الى الحكام ، ولا مزكى أصدق لديه من الصفر ، ترقص على الظفر ، ولا وثيقة أحب اليه من غمزات الخصوم ، على الكيس المختوم ، ولا وكيل أوقع بوفاقه من خبيئة الذيل ، وحمال الليل ، ولا كفيل أعز عليه من المنديل والطبق ، فى وقتى الغسق والفلق ، ولا حكومة ابغض اليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس ، ثم الويل للفقير اذا ظلم ، فما يغنيه موقف الحكم ، الا بالقتل من الظلم ، ولا يجيره مجلس القضاء ، الا بالنار من الرمضاء ، وأقسم لو أن اليتيم وقع فى انياب الاسود ، بل الحيات السود ، لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته اذا وقع بين غيابات هذا القاضى وأقاربه ، وما ظن القاضى بقوم يحملون الامانة على متونهم ، ويأكلون النار فى بطونهم ، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى ، وتسمن أكفالهم من مال الايامى ، وما ظنك بدار عمارتها خراب الدور ، وعطلة القدور ، وخلاء البيوت ، من الكسوة والقوت ، وما قولك فى رجل يعادى الله فى الفلس ، ويبيع الدين بالثمن البخس ، وفى حاكم يبرز فى ظاهر أهل السمت ، وباطن أصحاب السبت ، فعله الظلم البحت ، وأكله الحرام السحت ، وما رأيك فى سوس لا يقع الا فى صوف الايتام ، وجراد لا يسقط الا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب الا خزانة الاوقاف ، وكردى لا يغير الا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله الا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله الا بين العهود والشهود ؟ وما زلت ابغض حال القضاة طبعا وجبلة ، حتى أبغضتهم دينا وملة »

وكتب فى كتاب لم يعجبه انشاؤه وخطه : « الكتاب وصل ، حجم هائل ، ليس وراءه طائل ، وخط مجنون ، لا يدرى الف فيه من نون ، وسطور ، فيها شطور ، دبيب السرطان ، على الحيطان ، ولفظ اخلاط ، لا يدركه استنباط ، ولا يفسره بقراط ، هذيان المحموم ، وهوس الملوم ، وسوداء المهموم ، وقرأت شطر كتاب لم أدر والله عماذا يعبر ، عن أمور سقيمة ، أو عن أحوال مستقيمة ، لاجرم انى ظننت خيره ، ولم أبعد غيره ، وجوزت السلامة ، ولم آمن ضدها ، وذهبت مع الظن الجميل اتفاقا ، ثم رجعت القهقرى إشفاقا ، فسألت الله لك المزيد إن كانت سلامة والسلام »(٢)

وكتب الى أحد اصدقائه يطلب بقرة :

« وقد احتيج فى الدار الى بقرة يحلب درها ، فلتكن صفوفا تجمع بين قعبين فى حلبه ، كما تنظم بين دلوين فى شربه ، وليملأ العين وصفها ، كما يملأ اليد خلفها ، وليزن مشيها سعة الذرع ، كما يزين درها سعة الضرع ، ولتكن عوان السن ، بين البكر والمسن ، ولتكن طروح الفحل ، رموح الرحل ، وليصف لونها صفاء لبنها ، وليكن ثمنها كفاء سمنها ، ولتكن رخصة اللحم ، جمة الشحم ، كثيرة الطعم ، سريعة الهضم ، صافية كالجون ، فاقعة اللون ، واسعة البطن ، وطية الظهر ، ممتلئة الصهوة ، فسيحة اللهوة ، لا تضيق بطنها عن العلف ، فيؤديها الى التلف ، ترد الهول ولا تخافه ، وتشرب الرنق ولا تعافه ، واجهد أن تكون كبيرة الخلق ، لتكون فى العين اهيب ، ضيقة الحلق ، ليكون صوتها فى الاذن اطيب ، واحذر أن تكون نطوحا أو سلوحا ، واياك أن تبعثها ملوحا أو رشوحا ، ولتكن مطاوعة عند الحلب لا تمنع نفسها ، ولا تكثر لحسها ، وداهية فى الرعى ، لاقرب سعى ، حمقاء على الحوض كالنعجة ، لا تأمن من البعجة ، ألوفة للراعى الذى يرعاها ، مجيبة لصوته اذا دعاها ، مهتدية الى المنزل

(١) ص ٧٣

(٢) الرسائل ص ١٦٦

بغير هاد ، ذاهبة الى المرعى بغير قياد ، ولا اظنك تجدها اللهم الا أن يمسخ القاضى بقرة ، وهو على رأى التناسخ جائز ، فاجهد جهدك ، وأبذل ما عندك . »

وهو أكتب مايكون حين يعظ أو يهجو أو يسخر . وللفكاهة فى بيانه مجال واسع (١) به يقول فى رسالة شفاعة : « مثلى أيد الله القاضى مثل رجل من أصحاب الجراب والمحراب ، تقدم الى القصاب ، يسأله فلذة كبد ، فسد باليسرى فاه ، وأوجع بالاخرى قفاه . فلما رجع الى مسكنه كتب اليه توقيعا ، يطلب حملا رضيعا ، كذلك أنا وردت فلا اكرام بإلمام ، ولا صلة بسلام ، ولا تعهد بغلام ، فلما وجدته لايبالى ، بسبالى ، كاتبته اشفع لسواى ، وهو موصل رقعتى هذه ، وله خصم بينهما قصة لاأسأله فى البين ، الاإصلاح الجانبين ، والسلام »

وله من رسالة الى فقيه نيسابور فى رجل اغتاب البديع ، فرد عليه الفقيه : « فان كان لابد من انتقام واستيفاء ، فاعيذك بالله ان تجهل أن آذان الأنذال ، فى القذال ، وهى آذان لاتسمع الا من ألسنة النعال الأدم ، أو ترجمة أكف الخدم ، وعلامة فهمها جحوظ العينين ، وخدر اليدين . فان تاب ، والا كررت هذا العتاب . » (٢)

وله الى قيس بن زهير : (٣) « اعوز الصوف فبعثت اليك بفرو فطفقت تلوم ، وظلت تقعد فى العتاب وتقوم ، واراني ما بعدت فى القياس ، ولا خرجت عن متعارف الناس ، فالصوف نفس الفرو ، الا أنه نسيج ، والفرو نفس الصوف الا انه حديج ، فكل فرو صوف ، وليس كل صوف فروا ، فان أنصفت وجدت الفرو فطرة ، والصوف بدعة ، وإن نظرت رأيت الفرو صوفا وزيادة ، فكان نعمى وسعاده ، والفرو وبر فى الشتاء ونطع فى الصيف ، فان قرسك البرد فالبسه وأنت قيس ، وان غشيك المطر فاقلبه وأنت تيس » .

وبديع الزمان ليس متكلفا فى بيانه ، لايحس القارىء جهده فى اختيار الألفاظ أو سياق الأساليب ، ولكنه يلتزم السجع فى معظم كتابته سنة كتاب عصره .

وقد عاب الجاحظ فى المقامة الجاحظية بقلة الصنعة فى كلامه بعد أن عابه بأنه لايحسن الشعر قال : « فهل ترون للجاحظ شعرا رائعا ؟ قلنا لا . قال : فهلموا الى كلامه فهو بعيد الاشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات . منقاد العريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ »

ب — المقامات

يقول الهمذانى فى رسالة يعيب فيها شعر الخوارزمى : « وما كنت لأكشف تلك الاسرار ، وأهتك تلك الاستار ، وأظهر منه العار والعوار ، (٤) لولا ما بلغنا عنه من اعتراض علينا فيما أملينا ، وتجهيز قدح علينا فيما روينا ، من مقامات الاسكندرى من قوله انا لا نحسن سواها ، وانا نقف عند منتهاها ، ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ، أو عشر مفتريات ، ثم عرضها على الاسماع والضمائر ، وأهداها الى الابصار والبصائر ، فان كانت تقبلها ولا تزجها ، أو تاخذها ولا تمجها ، كان يعترض علينا بالقدح ، وعلى املائنا بالجرح ، أو يقصر سعيه ، ويتداركه وهنه فيعلم أن من أملى من مقامات الكدية اربعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين ، لا لفظا ولا معنى ، وهو لايقدر منها على عشر حقيق بكشف عيوبه والسلام »

ومثل ذلك فى رسالة الى أبى المظفر بن أبى الحسن البغوى (٥)

ويقول الثعالبي « فوافاها (يعني نيسابور) فى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ونشر بها بزه ، وأظهر طرزه ، وأملى أربعمائة مقامه نحلها أبا الفتح الاسكندرى فى الكدية وغيرها » .

وكذلك يقول الحصرى فى زهر الآداب انها أربعمائة مقامة . والذى بايدينا من هـذه المقامات اثنتان وخمسون . فهل ضاعت المقامات الا هذا المقدار ؟ أرجح أنه أملى فى الكدية أربعين وحرفت الكلمة الى اربعمائة ، وتتابع عليها النساخ . وذلك أنه يبعد أن يضيع هذا العدد من المقامات على كلف الناس بها ، ولانه فى رواية الحصرى عارض بالمقامات الأحاديث الاربعين لابن دريد . ثم هو يقول إنه أملى هذه المقامات فى الكدية . ونحن اذا عددنا المقامات التى فيها كدية صريحة وجدناها خمسا وثلاثين . وجائز أن يكون البديع قد اعتبر خمسا أخرى من مقامات الكدية ، فان صح هذا فقد أملى أربعين فى نيسابور . ثم أملى الاخريات بعد كالمقامات الست التى فيها مدح خلف بن احمد .

يتبع

عبد الوهاب عزام

(١) ص ١٠٤ (٢) ص ١٧٧ (٣) ص ٢٢٠

(٤) الرسائل ص ١٦٩ (٥) الرسائل ص ٢٢٧

من طرائف الشعر

الأوبـــة

للاستاذ خليل هنداوى

فرجّى الخير وانتظرى ايابى
اذا ما القارظ العنزى آبا !

— شاعر عربى —

لا ترتقبى إيابه ايتها الحسناء !
فقد انتزعته من ذراعيك عرائس البحر
أغوته بفتنتها وأغرته بروعتها .
لله ما أقسى هذه العرائس الزرق العيون !

— خرافة الاقدمين —

لا تنتظرى ايابه ايتها الحسناء
فقد سلبته من ذراعيك عرائس الصحراء
فتنته ببسمتها، وأغوته برقتها .
لله ما أقسى هذه العرائس الشقر الشعور !

— الناظم —

لا تَسُحى الدموعَ حزناً عليه   فشهيد الصحراء سوف يعود
انما مثلنا تود غـذاءً   تشتهى القوتَ وهو عنها بعيدُ

مرّ والشمس للغروب تهادى   وتمشّى فى جوفها كخيال
أفقٌ واسعٌ تلوح عليه   صور العابرين مثلَ الظلال !

أيها الواصلُ السُّرى فى فلاة   يملأ الصمت جوّها والسكون
لا تسر فى الفلاة سيراً وئيداً   تتيقظ عليك منها العيون
لا تسطر على الرمال رسوماً   لا تعكر فيها صفاء الليالى
صفحاتُ الصحراءِ - لو رحتَ تدرى
صفحاتٌ مقرونةٌ بالجـلال

ها هنا ليس للحياة مقام   ها هنا ليس للحياة ربوع
كل شىء مستسلمٌ لفناء   فتأمل كيف الحياة تجوع ؟

حيثما سرت لا ترى من صديق   مؤنسٍ ، غير ظلّكَ المشؤوم
لِمَ ترتابُ فى الرسوم وهذا   كله وطء رسمكَ المرقوم
لا خريف الصحراء - إن جاء يوماً
بخريف ، ولا الربيعُ ربيعُ

قد تساوت فيها الفصول ، وجاءت
فتأمل كيف الربيـعُ يجوع
سكنتْ فى تلولها غانياتٌ   باسماتُ الثغور، شُقْرُ الشعور
نشرها عبّق الجواءَ عبيراً   فتروّحْ فى الجو نشر العبير

وكأن الواحات فيها حسان   يترقبن أوبة الاحبـاب
كلما أقعدَ المسافرَ يأس   لوحت غادة له بالشراب
لا تروّعن يا حسان الصحارى   انه ضارب لكن لقاء
ذرنه يبتغى الطريق قليلا   أين يرجو فى داركن اهتداء
كم شباب فى القفر قد عصرته ؟   وأناس طوتهمُ الصحراءُ
رأت الارضُ والسماءُ ولكن
ما استجابت أرض لهمُ او سماءُ

انـما مثل غادة سعرتها   شهوات الأرواح والابدان
لا تحاول من الوصال فراراً   هى مشتاقة الى انسان . . .

ان أحبتك يا مسافر فانزل   فى حماها واهجع وخلّ الايابا
انها تعصر الضجيعَ ولا تزْ   دادُ بعد الوصـال الا التهابا

نام لا يرتجى اليك اياباً   وغفا ، لا يعى من الاعياء
أنبئيها ياريح ان فتاها   عشقتهُ عرائسُ الصحراء

لا تسحى الدموع حزناً عليه   فشهيد الصحراء سوف يعود
انهـا مثلنا تود غذاء   تشتهى القوت وهو عنها بعيد

دير الزور   خليل هنداوى

على مذهب ابن أبي ربيعة

ما هو الكون ؟ !

خلق الله للجمال قلوباً   اجتباها من صفوة الشعراءِ
سكبَ النور في قلوبهم السو   دِ فعادت تموج بالاضواء
واستحالت مرائياً يعكس الكو   ن عليها ما عنده من مَراء
واقفاً ناظراً محيّاه فيها   في غرورٍ كوقفة الحسناء !
ما هو الكون غير ذاك الضعيف الـ   حوّل يسطو به على الاقوياء ؟
ما هو الكون غير ذاك الذي يشـ   فى به الداء ، وهو عين الداء ؟
غير ذاك الذي عليه تَلاقى   ضربات السرّاء والضرّاء
غير ذاك الذي به تعثر الدُّ   نيا على مرطها من الخيلاء
غير ذاك الذي به الحب والبغـ   ضاء بين الأحباب والاعداء
غير ذاك الذي به امتحن اللـ   ـه قلوب العصاة والاتقياء
غير ذاك الذي يلوذ به النسـ   ل ويُغرِي الآباء بالابناء
غير ذاك الذي يصير به الكو   ن نعيماً على بساط اللقاء
وهو ذاك الذي يصير به الكو   ن جحيماً اذا طواه التنائى
غير ذاك الذي تجمّع فيه   ما وعى حسنه من الاسماء
غير ذاك الذي إليه ومنه   كل ما في الوجود من أشياء
ما هو الكون غير فتنة حوا   ء وما في حواء من اغراء ؟
ليت شعري أكان للكون معنى   لو أتى آدم بلا حواء ؟ !
يا نهوداً كأنهن حِقاقٌ   من بقايا صناعة القدماء !
تعبت جاذبية الارض فيها !   وأنيطت بها نجوم السماء !
وحلال العيون ليس بأشهى   من حرام النهود تحت الكساء
وهما خير ما تكشف عنه الـ   حسنُ من فتنة ومن اغواء
غير أن العيون أمضى قِسيّاً   في شغاف القلوب والاحشاء
غير أن العيون أذكى حريقاً   في الشراسيف والصدور الدِّواء
غير أن العيون أعصف بالقلب   وأهدى في مظلم الاهواء
غير أن العيون ألعب بالسحر   وأقوى في البعث والايحاء
غير أن النهود ابهج في العين   وأندى على القلوب الظِّماء !

مُتعة الطَّرف ما يُمثّله النهـ   ـد من الهمس أو من الايماء !
رافع الرأس دأبه يتحدى الشـ   ـمّ في عزة وفي كبرياء !
شيمة الحر لا يطيق احتمال الضيـ   ـم من ظالم من الرؤساء
يكرع الطرف جهده منه في ما   ء شهي لكن بلا إرواء
سرق الروض من نداه فاخفى   بعض تفاحه من استحياء
هو سر الاسرار يستره الكو   ن ويبديه في تقى وحياء !
حُلُمٌ في عيون من أسعد اللـ   ـهُ ونار في أنفس الاشقياء !
في فم العاشق المدلّه شهد   حضرمي ، او بابليٌّ طِلاء
وحياة تمصها شفة الطفـ   ـل غذاء يفوق كل غذاء
نغم كله وسحر وشعر   ومزيج من الندى والضياء !

عظمت دولة الجمال وعزّت   وتعالى ما فيه من اسماء
بعض اسمائه يضيع به الدهـ   ـر فناء وما له من فناء
نفذت من اعماقه حكمة البا   ري وضاعت وساوس الحكماء !
والسعيد السعيد من شمّ منه   أرجاً من حديقة غناء
والسعيد السعيد من شهد اللـ   ـه على لوح نوره الوضاء

رب غاوٍ يلومني في نشيدي   وهو لا ينتهي عن الفحشاء

....

خاشع الطرف مطرق الرأس يمشي   بين خلين سمعة ورياء
يظهر الفكر وهو في السر يغشى   ما تندّى له جبين الحياء
وأنا الطاهر السراويل والبُر   د نقيّ القميص عف الرداء
ليس مني الفسوق، تأباه في جسـ   ـمي دماء الجدود والآباء !
ينهل الحسن من غرامي ولكن   هو صديان يلتظى من إبائي !
كل حبّي طهرٌ وقدس وتسبيـ   ـح لربّي وصيغةٌ من دعاء
أنا عبد الجمال حرّرتُ في معـ   ـبده مهجتي بلا استثناء
مهرقاً في محرابه ذوب قلبي   ما تراه مضرجاً بدمائي ؟ !
أعبد الله فيه : اقرأ فيه   آية الاقتدار والانشاء
ان يكن في الحدود جسمي فروحي   تتهادى في العالم اللانهائي !

نزيل القاهرة   علي احمد باكثير

(الرسالة) أثبتنا هذه القصيدة على علاتها تسجيلا للون من ألوان الادب الحضرمي

مشروع زواج

بقـــلم محمد روحى فيصل

جلس الصديقان يتسامران بعـــد العشاء ، وقد انبسطت أعضاؤهمـا فوق الأرائك الناعمة الوثيرة ، يرسلانها على هواهما ، ثم يعبثان بمـا ينشأ عن دخان التبغ فى الفضاء من منعرجات وأشكال . . .

وتلك ساعة حلوة عذبة ، تنشرح لها الصدور ، وتشرق فيها الوجوه ، وتنطلق فيها الألسن بالكلام ، وتجيش فيها القلوب بنوازى الحياة وشتى العواطف والأهواء ، وكلها تنزع الى الظهور والافصاح ، وتطلب السفور والاعلان من غير التواء ولا تحجب . وكان ضوء المصباح نحيلا شاحباً ، يضطرب كالمحتضر على جدران الغرفة الرحبة ، ثم لا يكاد يبين ما يزينها : من طنافس مزركشة وأسلحة مفضضة . إنمـا يبرز الى النصف بين الظلال الفاحمة رسم امرأة فتية قد اتخـذت وضعاً مائلا نحو الأمام كأنمـا هى تتسمع صاغية ، وضاحة المحيا ، صبوحة الوجه فى عينـين زاهيتين ، وفم مطبق مرهوب تطفو عليه ابتسامة حيرى ذات معان !! وكان الكرسى الصغير والنعال الدقيقة المبعثرة ههنا وههنا توحى للخاطر بوجود طفل وليد فى الدار ، ومن الغرفة المجاورة كانت تنبعث الحين بعد الحين أنغام شجية ، وموسيقى متسقة منسجمة ، إذ تهدهد الأم الرؤوم فتاها كى ينام . فيمتلئ الجو بالنشـيد روعة وجمالا ، ويشبع فيه عبير اللذة والهناء ، فيصيح الشاعر مهتاجاً : « لك الحق يا أخى أن تتزوج وأن تنعم بالزواج ، فليست سبل السعادة كثيرة متشعبة . إنها هنا على مقربة منا . . . بربك التمس لى فتاة أتزوجها ! »

المصور — أنا ألتمس لك فتاة ؟ ! تالله لن أخوض غمار ذلك أبداً

الشاعر — ولمـاذا ؟

المصور — تسألنى لمـاذا ؟ فاعلم أن أصحاب الفن ماينبغى أن يتزوجوا ، وماينبغى أن يكون لهم فى الحياة شركاء

الشاعر — ياللعجب ! تقول ذلك ولا تخشى أن يغور نور المصباح وتنقض على رأسك الجدران . إن حياتك الزوجية نصب ماثل للسعادة المنشودة والنعيم المقيم ! ومثلك فيما تزعم كمثل أولئك الأغنياء المترفين يكنزون المال ويضاعفون الثروة من آلام الآخرين وشقاء العاملين ، ويستطيبون نار الشتاء حين يذكرون البؤساء الذين لا مأوى لهم ولا نار عندهم ! !

المصور — قل ما تشاء ، شبهنى بما تهوى ، فلن أكون لك الا الصديق الوفى النصوح الذى يرى الخطر فلا يقف مكتوف اليدين متبلد الحس ، جامد الشعور

الشاعر — أراك تسرف فى كره الزواج اسرافا كبيراً مع أنى استروح أريج السعادة هنا كما أتنفس الهواء الطلق فى الحقول !

المصور — نعم إنى سعيد كما تقول ، أحب زوجتى حبا جما وأرى فيها وفى ولدى كل جمال الوجود والحياة . لقد كان زواجى مرفأ هادئا آمنا تحفه المياه الوادعـــة ، أفلى وما زال يقلنى الى ما أصبو اليه من مواطن الراحة والسلام . وإنتاجى أخصب وسما ، ولعل خير رسومى قد أبدعتها فى عهد الزواج . . .

الشاعر — وما بالك تنأى بى اذن عن عالم السعادة ؟

المصور — ها . . . إن السعادة التى أنعم فى أحضانها انما هى أعجوبة من أعاجيب القدر ، لا يسمح بها الزمان ، ولا تجود بها الطبيعة على الناس جميعا . وأنا كلما أدركت ماهية الزواج فرحت لهذا الحظ الضاحك الذى حبانى به الأله الكريم . فحالى تشبه حال من فطن للهوة السحيقة المخيفة بعد أن اجتازها فاعجب بشجاعته ومضاء همته ، وشكر الله على سلامته !

الشاعر — وما هى مساوئ الزواج يا أخى ؟

المصور — أولى المساوئ وأعظمها أن الاسرة تستهلك المواهب وتميت الأبداع ، وهذا أمر له وجاهته بلا ريب فى حياة الفن الجميل . يكون الزواج استجابة طبيعية للغريزة الكامنة الحمراء ، وقد يعلى شأن بعض الرجال ويوسع إطار خبرتهم ، ويدنيهم من الأرض والمدنية ، ثم لقد يكون ضرورة من ضرورات المهنة والمعاش . أما الفنانون من شعراء ومصورين ونحاتين وموسيقيين لا يمتزجون بالناس ولا يدخلون المجتمع ، وانما يعيشون على حافة الحياة يرقبونها عن كثب ويتأملون خطوطها والوانها ثم يسجلون مشاهداتهم ويدعون آثارهم . فالمتزوجون فيهم على هذا ينبغى ان يكونوا قلائل نادرين

هذا « ديلا كروا » العظيم الذى تعجب به وتهيم برسومه قضى عمره الطويل اعزب يدب وحيداً بين جدران بيته . لقد خطرت البارحة على « شانروزاى » ومتعت النفس بحديقتها النضرة المتزهرة . إنه ظل عشرين عاماً بندو بها ربروز لامؤنس له غير هديل الحمام وتغريد العنادل . ترى ماقيمة إنتاجه لو كان اباً يهتم للكسب والأولاد ، يربيهم ويعنى بتعليمهم ، وقد يمرضون فيسهر على مداواتهم ولاينام ؟!

الشاعر — ذكرت لى ديلا كروا مثلا ، فهلا ذكرت فكتور هوجو ... أتعتقد ان شئون الاسرة قتلت ملكاته وأخذت عليه سبيل الانتاج الأدبى الخالد ؟

المصور — انا لاأرى ذلك ابداً ، ولكن الفنانين المتزوجين ليسوا كلهم عباقرة تهضم الفن والعائلة قواهم النفسية ...

الشاعر — ما عجبت لشىء عجبي لحكاية متزوج سعيد لا يحب لغيره الا العزوبة والوحدة !

المصور — ان الحكم الذى أضعه بين يديك ليس مصدره حياتى الخاصة ! إنما كونته عندى تلك الشرور القائمة فى كثير من الأسر التى عرفتها واتصلت بها . والباعث على الشرور التباين العقلى والنفسى بين الفنان وزوجه . أتذكر ذلك النحات الماهر الذى ترك الأهل والوطن وهاجر الى حيث لا يدرى مصيره أحد من الخلق ؟ لقد كان يعبد مهنته ويفنى فيها وقته وحواسه ، ولكن زوجه الذكية الحسناء كانت تريده على أن يحيط حسنها بهالة من الثروة والجاه ، فطفق النحات يكد ويعمل طوال عشر سنين ، وربما تدفع به وبنفسها فى بعض الأماسى الى الابهاء الرفيعة الارستقراطية تدخلهن واحدة بعد أخرى وتذيع فيهن مالها وبهاءها ، ولقد تقطع عليه عمله فى النهار لتزور ويزور صويحباتها، ثم يرتادان معا أماكن اللهو ومجالس الأنس . ستقول إنه يستطيع لو شاء ألا يحقق مناها ، ولكن الزواج فى طبيعته يضطرنا إلى أن نؤثر جانب الرفق واللين على جانب الشدة والعنف . لاأنكر أن هواء البيت انما نتنفسه على الرغم منا ، ولولم يكن فيه ذرة من القوة والمثل الأعلى لثقل علينا ضغطه وكثافته . ان الفنان ليودع فى آثاره كل مايملك من جهد وفكر ، ويجرد لهذا الغرض العزم والارادة ، ولكنه يقف من توافه الحياة موقف العاجز الضعيف ، يلين لزوجته حتى المهانة ، ويخنس لسلطانها حتى العبودية ، تأمره فيمضى فى صمت وتقول فيفعل فى هدوء . على انه قد يثور اذا اطرد الاستبداد واشتدت العبودية ، فهذه العصائب المانعة للنور ان هى عاقته عن الانتاج الفنى لايلبث ان يطرحها فى نفور كما فعل المثال المهاجر ، وقد حزنت الزوجة لهذه الهجرة الفجائية فتساءلت ، أأكون انا الجانية عليه ؟ هل من إساءة وخزته بها ؟ ، بلى ! انها لم تعمد الى الاساءة عمداً ، وانما جرت مع طبيعتها الطائشة الغريرة دون ان تفقه زوجها الحساس . فليس يكفى ان تكون المرأة ذكية حصيفة لتصلح شريكة الفنان فى الحياة ، بل ينبغى لها فى النزعات نكران الذات والتضحية بالنفس ، وهذا ما لا تجده عند امرأة جاهلة بهرتها لذاذات الدنيا وغشيتها الأنانية !! إنما يرغب النساء أن يكن رشيقات ساحرات ، وأن يتزوجن وجيه القوم كى يظهرن الى جنبه متأبطات ذراعه . فأما الفنان الصناع فلا يجد متسعا من الوقت حتى يتبرج مختالا كما يتبرجن مختالات فخورات ، أرأيت كيف تشق الأسر وينتابها الألم ؟ أعرفت كيف يسقط الزوج ضحية الجلاد الأعظم ...

وبالأمس زرت « دار حنتى » الموسيقار وكان يسمر مع خوانه الكثر ، فطلبوا اليه فيما طلبوا أن يعزف على البيان ، فقام رجع لحنا سائغا طرب له الحاضرون وصفقوا أيما تصفيق ، ولكن زوجته مالبثت أن شرعت تتحدث فى خفوت ، فما زال صوتها يعلو حتى ملأ الغرفة وشغل الناس ، فقطع الموسيقار لحنه ثم التفت إلى وهمس فى أذنى «هكذا تصنع معى على الدوام . انها لاتطرب للموسيقى . ! »

الشاعر — سهوت عن أمر جليل . إن الزواج يجلب الأنس ويطرد الوحشة والفراغ . وفى الحياة لحظات خطرة هى لحظات الخور والملال ، يتشاءم فيها الفنان ويشك فى نفسه وفى قيمة فنه ، فالمتزوج انما يرى بقربه قلبا حبيبا يبثه أشجانه وشكوكه . والطفل ؟ هذه الابتسامة البريئة التى تتألق على وجهه الغض ، أليست تعزى الشيخ وتجدد شبابه ، وكل ما يخسره الفنانون يربحه ابناؤهم من بعدهم . فهذه الشعرات البيضاء التى تتساقط فى المشيب يرونها تنبت سوداء متجعدة على رأس مستدير بديع

المصور — وكيف يستطيع الشيخ الواهن إطعام الطفل الصغير ؟

الشاعر — ..... وعلى كل حال فالفنان انما خلقه الله للزواج قبل ان يخلقه للفن ، فاذا لم يتزوج كان فى الدنيا كالمسافر الجواب قد أتعبه التشرد فسكن الى غرفة من غرف الفندق كتبت عليها هذه العبارة المبتذلة « للايجار ليلة أو شهر »

المصور ـــ ولكن هذا المسافر المتنقل لن يتذوق طعوم اللذات .

الشاعر ـــ كفى ! لقد اعترفت بأن فى الدنيا لذات . . .

وبدا للمصور فنهض من مكانه الى درج رسومه يلتمس منه كتابا مخطوطا باليا ثم عاد وقال ، أما المناقشة على هذا النحو فلن تفيد أبداً . لقد بسطت لك رأيى ولكنك تأبى الا الزواج ، فهذا كتاب خطته يد متزوج سعيد لابس أسر الفنانين ودرس ما يكابدون من أسقام ، ثم صور ذلك تصويرا طريفاً دقيقاً ، ولم يطبعه بعد ، فاقرأه بأمعان فهو رادك بلا ريب الى جادة الصواب . . . ،

عن (أزواج الفنانين) بتصرف — محمد روحى فيصل

في الأدب الفرنسي

٢ ـ الدوق دى لاروشفوكو

La Rochefoucauld

للدكتور حسن صادق

أطاع الملكة مكرها ، ثم عاد إلى (فرتى) ينتظر تغير الحال ليحقق آماله الكثيرة . ومات ريشليو فى عام ١٦٤٢ ، فتحفز لاروشفوكو للطالبة بثمن عطفه على الملكة ومساعدته إياها . وزعم أنه كان يكره هذا الوزير الذى كسر شوكة النبلاء ، فانه أنصفه فى مذكراته فقال : « فجعت الدولة فى هذا السياسى الكبير . كان عظيما فى مقاصده ، ماهراً فى إنفاذ خططه ، وقد ضمن بأعماله المجيدة الخلود لذكره »

هذا الشاب الخيالى الذى عرف ريشليو كيف يكبح جماحه دون أن يقسو عليه ، أصبح أيام الوصاية على العرش يسعى وراء مصلحته الذاتية ليس غير .

الرجل الطموح

لما مات لويس الثالث عشر وأقيمت زوجه آن دوتريش وصية على ابنها لويس الرابع عشر ، فرح الملتفون حولها وتطلعت نفوسهم إلى تحقيق مطامعهم على يديها . ورأت هى منهم ذلك فجادت عليهم بالوعود وتركتهم فى آمالهم ينعمون ، ثم وضعت أزمة الدولة فى يد الكاردنيال ما زاران صنيعة ريشليو عدو النبلاء . والعظامين ولم تأبه لرغبات لاروشفوكو الذى أظهر الوفاء لها فى ظروف كثيرة ، وهو يقول فى مذكراته عن ذلك : « قضيت عشرة أعوام فى خدمتها ، وخاطرت بثروتى وحريتى فى سبيل راحتها وحريتها حتى قيل عنى إنى شهيدها . وكثيراً ما قالت لى إنها لا تجد فى البلاد ما تكافئنى به على ما قدمت من معروف » . ولكنها لما ملكت زمام الحكم نسيت قولها تمام النسيان

ولما يئس النبلاء من وعودها ، كونوا فيما بينهم جمعية سرية ترمى الى القضاء على سلطان الوزير مازاران واختاروا الدوق دى بو فور رئيسا لهم . وانضم اليهم لاروشفوكو اسما دون أن يوافق على سلوكهم وخطتهم ، وأصبح البلاط حزبين : حزب الوزير وحزب الدوق دى بوفور . ولأجل اكتساب عضد الملكة الوصية على العرش ، تقدمت الجمعية الى لاروشفوكو أن يرجو من الملكة إصدار العفو عن صديقتها الدوقة دى شفريز حتى تعود الى البلاد ، فأطاع لاروشفوكو وما زال بالملكة حتى أجابت سؤله وأمرته بالذهاب إليها حاملا هذا الخبر السار ، ففرح وقال فى نفسه « أجابت هذا الطلب ، وستجيب دون شك مطالبى الأخرى »

أسرع الى مقر الدوقة وأدلى اليها بما حدث فى البلاط أثناء غيبتها ، ورجا منها أن تصبر على مازاران ، فان أرضى رغباتهما وحقق آمالهما تركته وشأنه ، وان أبى عليهما ما يطلبان شاكسته

ولكنها لم تكد تطأ أرض باريس حتى نسيت قول لاروشفوكو وحاولت عزل الوزير وإحلال أحد رجالها المسمى شاتونيف محله ، وجهرت برغبتها فى رد القوة إلى الأسر العظيمة التى تحبذ آراءها وترضى عن خططها . وقبل أن تقدم على عمل جدى ، افتضح أمر الجمعية وألقى القبض على رئيسها فى ٢ سبتمبر عام ١٦٤٣ وحبس فى فنسين ، وأمرت الدوقة بالاقامة فى تور . أما لاروشفوكو فلم يمس بسوء ، وكل ما أصابه فى هذه الحادثة أن الملكة أمرت بأن يعرض عن الدوقة ويخلص للوزير . ولكنه لم يذعن لأمرها ولم يجن من وراء ذلك نفعا

واستمر فى البلاط إلى عام ١٦٤٦ كئيب النفس وسط مسرات البطانة ومرحها ، وسعى سعى المجد إلى الحصول على إحدى الرتب العسكرية التى رفض قبولها من ريشليو ، ولكن سعيه لم يصب غير الفشل . فدفعه اليأس من بلوغ مقاصده إلى الاتصال بالدوقة دى لونجفيل التى تضمر العداوة للملكة . وهذه

الدوقة كانت شديدة الكبرياء مولعة بالمجون والاستهتار ، وقيل إنها أحبت أخاها الدوق رانجان حبا فيه إثم كبير ، وإنها كانت ترى فى هذا الحب البغيض طريقة تميزها من « القطيع الانسانى » . ولم يحبها لاروشفوكو ، بل تصل بها وأظهر كلفه بها ليستخدمها فى سبيل اغراضه . وهو لم يعرف الهوى المحرق كما تقول مدام دى سفنيه (١) وقد سمعه سجريه (٢) يقول : « لم أعثر بالحب إلا فى القصص الخيالية »

وفى أغسطس عام ١٦٤٨ ، قامت ثورة فى باريس تعرف فى تاريخ فرنسا باسم La Fronde (ومعناها لغة : النبلة التى يستعملها الصغار عندنا فى صيد العصفور ، وكانت شائعة فى فرنسا وقت قيام هذه الثورة فسميت باسم هذه اللعبة) ، ثم امتد الاضطراب إلى الريف ، وأشعل الفلاحون فى (بواتو) نار الشغب . وكان لاروشفوكو قد حصل على حكمها بفضل مكانة أبيه ، فقمع هذا الشغب قبل أن يستفحل ، ونال بعمله هذا إعجاب الوزير مازاران . ولكنه كان يسعى الى شىء آخر غير الاعجاب بعمله ، كان يرغب فى الحصول على لقب دوقة لزوجه وعلى الاذن له بدخول فناء قصر اللوفر فى عربة كآل روهان (وهم من سلالة ملوك بريتانيا) فلما خيب الوزير أمله ، انضم فى الحال إلى الثائرين على الرغم من رأى والده واسرته ، وأسرع إلى باريس لمقابلة الدوقة دى لونجفيل التى أعدت خطة لاضرام نار حرب أهلية . وقد حاولت أن تضم إليها أخاها الدوق رانجان الذى أصبح أمير كونديه بعد موت ابيه فى عام ١٦٤٦ ، ولكنها أخفقت لأن الملكة غمرته بالنعم الجزيلة ثمنا لمساعدته إياها

أخذ كونديه بعضد الملكة وأنقذ البلاط من الثائرين وأصبح صاحب الكلمة النافذة فيه ، فألحف فى طلب المال لنفسه والمزايا لأصدقائه ومن بينهم لاروشفوكو . وأجابه مازاران إلى ماطلب ولكن النبلاء تقدموا إلى الملكة أن تلغى هذه المزايا فألغتها فى ١٠ اكتوبر عام ١٦٤٩ . وفى ذلك اليوم كتب لاروشفوكو فى كراسة يذم الوزير ويسخط عليه لأنه « قاوم طموحه مقاومة عنيفة » . وجملته الأخيرة تدل على روح النبلاء فى ذلك العصر ، وبقيت هذه الكراسة مجهولة من الناس حتى عثر بها فكتور كوزان (١) فى أوراق كونرا (٢) ونشرها

ولما ضاق الوزير ذرعا بكونديه استعمل الخديعة حتى ألقى عليه القبض هو والدوق دى لونجفيل وقيد حريتهما فى الهافر ، وخافت الدوقة دى لونجفيل أن تصير إلى ماصار إليه زوجها فهربت إلى هو لانده بمساعدة لاروشفوكو

وفى ٥ فبراير ١٦٥٠ مات والد لاروشفوكو ، فاتخذ من إقامة المأتم ذريعة إلى جمع كثير من النبلاء والفلاحين والجياد (٧٠٠ نبيل ، ٨٠٠ فلاح ، ٢٠٠٠ جواد خطبهم واستوقد حماستهم لمحاربة جنود الملك . ولكن هؤلاء قهروا رجاله وأهلكوا زرعه ودمروا قصره فى (فرتى) . ويقول أحد أصدقائه أن لا روشفوكو لما بلغه خبر الدمار الذى أصاب القصر الناطق بعظمة أجداده ، اعتقد أن الدوقة دى لونجفيل ستقدر له هذه التضحية فى سبيلها حق قدرها ، وبعث هذا الاعتقاد فى نفسه سرورا كبيرا . وقبل انقضاء شهر فبراير هدأت الحال وأطلق سراح كونديه ومن معه ، وغادر ما زاران البلاد حتى تسكن العاصفة

استرد كونديه حريته ولكنه أضمر الشر للوزير والملكة . ولما بلغ لويس الرابع عشر رشده فى ٦ سبتمبر عام ١٦٥١ ، وأقيمت لهذه المناسبة حفلة فخمة : فى قصر اللوفر لم يحضرها كونديه وأعوانه خشية أن تنال الملكة منهم منالا . وعرفت أخته الدوقة دى لونجفيل ميله الى اشعال نار الحرب الاهلية مرة ثانية ، فشجعته حتى سل سيفه فى وجه الملك

يتبع

حسن صادق

(١) ١٦٢٦ — ١٦٩٦ أديبة فرنسية فرحة المزاج عفيفة الازار واشتهرت فى عالم الأدب برسائلها الممتعة واسلوبها الشائق النق . وكانت تعجب بلاروشفوكو وتخلص له الود

(٢) ١٧٩٢ - ١٨٦٧ فيلسوف فرنسى نابه الذكر . كان أستاذا للفلسفة فى مدرسة المعلمين ثم فى كلية الآدب بجامعة باريس . ووجه عناية خاصة لدرس الفلسفة الالمانية وقامت بينه وبين هجل وشلنج صلات المودة . ونشر كتب ديكارت (١١ مجلد فى ١٨٢٦) ونقل الى الفرنسية كتب افلاطون وشرحها (١٣ مجلد ١٨٣٣) وهو زعيم مذهب فلسفى يسمى المذهب النقاد الذي يقصد به إلى مزج آراء ديكارت بآراء كانت والمدرسة الا يقوسية واستخلاص مذهب جديد من هذا المزيج . ولكن هذا المذهب مات مع صاحبه . وقد ترك مؤلفات قيمة فى الفلسفة وتاريخها

(١) ١٦٠٣ - ١٦٧٥ . أديب فرنسى بروتستانتى المذهب كان يجيد الايطالية والاسبانية . ومن صالونه الادبي ولدت فكرة الأكاديمى فرانسيز ولما أنشئت عين كاتم سر دائما لها . قضى حياته فى القراءة وكتابة مسودات . وعند موته ترك منها ما يملأ أربعين مجلدا حفظت كلها فى مكتبة الأرسينال

(٢) ١٦٢٥ — ١٧٠١ شاعر فرنسى رقيق العاطفة دقيق الحس ومؤلف مسرحى كثير التوفيق . وقد ظهرت له أول قصة تمثيلية (هيبوليت) وهو فى التاسعة عشرة من عمره . وفى عام ١٦٦٢ انتخب عضوا فى مجمع العلماء ، ونقل الياذة فرجيليوس الشاعر الرومانى الاكبر الى اللغة الفرنسية شعرا . وكان من اصدقاء لاروشفوكو الذين لازموه فى شيخوخته

العلوم

٤ - يسألونك عن الأهلة

للدكتور احمد زكى

(تتمة)

سطح القمر

ثم جاءت الفوتوغرافيا فمكنت الانسان فى ساعة قصيرة مما كان يتطلب منه أياما طويلة ، وقدرته بمجهود فى مركز قليل ، على مالم يكن يقدر عليه الا بمجهود قاس منهك كبير ، وكانت الفوتوغرافيا فى منتصف القرن الفائت فى أول نشأتها ، فكانت الخدمات الاولى التى أدتها الى علماء الافلاك منقوصة مقصورة . ولكن مالبثت أن تقدمت هذه بتقدم تلك ، ورقب بحاث السماء بحاث التصوير فاستفادوا من كل جديد ، وغيروا وحوّروا من الطرق المستحدثة حتى تتفق مع حوائجهم ، وزادت تلك الحوائج وتضخمت حتى انفردت بمبحث خاص أسموه الفوتوغرافية السماوية Celestial photography هى اليوم من أهم الوسائل وأقرب الوسائط فى دراسة كل مايحدث فى العوالم الدوّارة والشهب السيارة ، وللتصوير الشمسى فى دراسة النجوم والأقمار ميزات غير الميزة الظاهرة ترجع الى طبيعة العدسات واحساس الأفلام . فعين الانسان مثلا اذا حدّقت فى شىء مباشرة أو بواسطة منظار فهى لاترى من هذا الشىء الا بعضا صغيرا من كل كبير ، لذلك كان الرسامون القدماء يرسمون القمر باقلامهم من خلال المنظار قطعة قطعة ، وخريطة خريطة ، ثم يصلون بين هذه الخرائط لتتم الوحدة ، وذلك لأن عيونهم لا تستطيع أن تُبوِّر Focus من المنظور الا منطقة قليلة ، أما عين الكمرة فأوسع من عين الآدمىّ وأشمل ، فنظرة واحدة منها تعدل نظرات المئات من الناس . وعين الكمرة يتراكم فيها أثر المنظور بتطاول الزمن ، وليس هذا لعين الانسان ، فأنت تنظر الشىء القليل الضياء فلا تراه ابدا أو تراه مبهما ، ولا تفيدك إطالة النظر اليه الا بتعب العين فزيادة الابهام ، اما الأثر فى الكمرة فكيميائى فللزمن عامل فيه ، فكلما زاد التعريض زاد الأثر فبان الخفى واتضح المبهم . وقدرأت الكمرة وترى فى السماء أجراما عميت عنها النواظر . وعين الكمرة تحس أضواءً من أنواع لا تراها العين ، فالعين لا ترى الا المرئىّ من الطيف ، أما فوق البنفسجى وما دون الأحمر فلا ترى منهما شيئا ، وهى أضواء فى دراسة السماء لهاخطر كبير تضطلع به الكمرة بكفاية محمودة

والقمر أول اجسام السماء التى اتجه اليها البحاث فى التصوير الفوتوغرافى ، اقترح ذلك أراجوا Arago عام ١٨٤٠ ولكن انفذه الدكتور درابر Draper فى نفس العام ، وكانت طريقة التصوير المعروفة عندئذ هى طريقة داجير Daguerre يستخدمون فيها لوحا من نحاس مُفضّض يحسّسونه ببخار اليود والبروم ، ونجح بها تصوير القمر لأول مرة نجاحا خطيرا ، ولم يكن خطره فى حسن الصورة الناتجة وشدة وضوحها وكثرة تفصيلها ، فهى لم يكن لها ذلك ، وإنما كان خطره فى ان القمر أمكن تصويره من ضوئه ، فقد كان الناس فى شك من احتواء هذا الضوء على أشعة الشمس التى تؤثر فى أملاح الفضة

وجاءت طريقة التصوير بالكلوديون Collodion ، وهو النتروسليولوز مذابا فى كحول وأثير ، يضاف اليه يودور الصديوم أو البوتاسيوم مع قليل من البرومور ، ثم يُفرش على الواح من زجاج تغمس فى الظلام فى حمام من أزوتات الفضة فيتكون عليها بذلك يودور الفضة وبروموره وهما الملحان الحساسان . ، وكان لابد من تجهيز اللوح قبيل التصوير مباشرة . استخدم هذه الطريقة كروكس Crookes وديلارو De la Rue فجاؤا بصور أقصر زمنا وأوضح تفصيلا .

ثم خطت الفوتوغرافيا خطوتها الثالثة فى التقدم فصنعت الألواح من الجيلاتين بدل الكلوديون فخرجت الى الاسواق ألواح جافة . ثم حلت الافلام محل الزجاج . ولا دراك الفرق بين طرق التصوير الثلاث الفائتة نذكر أن متوسط المدة اللازمة لتعريض اللوح فى طريقة داجير هى نصف ساعة ، وفى طريقة الكلوديون عشر ثوان الى خمس عشرة ثانية ، وفى طريقة الجلاتين ثانية الى جزء من مائتين من الثانية . والزمن له قيمته فى تصوير المتحركات ومنها الاجرام السماوية

وتخلص نتيجة الفحص البصرى والفوتوغرافى فى تمييز أشياء ثلاثة على سطح القمر هى أظهر ما فيه

اما الشيء الأول فسلاسل من الجبال متباينة الاشكال ، بعضها بالغ العلو طويل السلسلة ، وبعضها مفرطح متصل يكون نجادا واسعة ، وبعضها متقارب الجبال متجمعها ، وبعضها كبير الميل عميق السفح رفيع القمة . وقد توجد فى الوديان تلال كالاهرام منثورة مبعثرة ، وقد تعلو وتميل بغتة حتى لتشبه أكثر مناطق الارض وعورة ، ومن أغرب ما فى تلك السلاسل جسور قليلة العلو الا أنها مسرفة فى الطول تمتد بين الجبال فتربط الكبير بالصغير والمجموع بالمنثور

أما الشيء الثانى فجبال ذات فوهات كالبراكين هى فى الواقع أخص مظاهر السطح ، وهى فوهات أوسع كثيراً من فوهات البراكين الارضية ، فجبل كوبرنكس Copernicus يبلغ قطر فوهته فوق الخمسين ميلا ، وتختلف تلك الجبال الفوهية فى مظهرها ، فبعضها فوهته كالحائط المستدير ، وبعضها تكسرت فوهته فظهر ما بقى منها كالجبال تجمعت فى استدارة حول حفرة الفوهة ، وبعضها عمقت حفرته أو ضحلت أو تقورت أو تقعرت ، وبعضها انخفض قاع حفرته عن مُستوى الارض بظاهر الجبل ، وبعضها قاربه أو علا عنه كانه فنجان امتلأ ، وتعزى أصول هذه الجبال الفوهية القمرية الى مثل أصول البراكين الأرضية ، ومنها ما يركب بعضه بعضا كما تعلو الحلقة الحلقة ولا تطابقها ، فيقال ان الأوطأ كانت بسبب انفعال باطنى أقدم



منطقة القمر التى اسميت قديما بالبحر الحبيس

ويميز الانسان على سطح القمر عدا ما فات اخاديد مستقيمة تستطيل فى الوديان فى اتجاه واحد فاذا انحرفت عنه فعلت ذلك بغتة وسارت فى استقامة جديدة ، فاذا اعترضها جبل فوهى قطعته ، فهى أجدُّ منه ولادة ، واذا اعترضها

جبل عصى فقطع اطرادها ظهرت وراءه دون أن يختلف مسارها . أما طول الأخدود الواحد فقد يبلغ المائة ميل ، وأما عرضه فقد يزيد على الميلين ، وتعزى هذا الأخاديد فيما تعزى الى انشقاقات حصلت فى السطح وهو يبرد وينكمش

وتتميز على سطح القمر أيضا شعاعات تخرج من فوهات الجبال فتمتد مئات من الأميال لم يهتد الفلكيون بعدُ كل الاهتداء الى تفسيرها .

وكلما تقدم البحث فى القمر وزادت معرفة الانسان بأحواله خاب الرجاء القديم فى العثور على أثر من آثار أناسىّ مثلنا تسكن القمر . بالطبع لم يكن مرجواً أن نرى شخص انسان على القمر لقصور أجهزتنا الضوئية عن ادراك ذلك ، ولكن تلك الاجهزة تتبين على سطح القمر أشياء تقل اطوالها عن نصف ميــل ، وإذن فلو كان على القمر ناس يسكنونه وفاتنا رؤيتهم فلا أقل من أن نرى آثارهم ، فالمدن لا بد أن تكبر عن نصف ميل ، وهى لا شك تتغير خططها فتضيق وتتسع على الزمن ، وتمتد إن شرقا وإن غربا وإن شمالا وإن جنوبا وقد تطول وقد تستعرض ، وقد فاتنا ادراك شىء من ذلك بأقوى المنظارات . هذا على افتراض أن الانسان الذى يسكن القمر مخلوق على مثال انسان الارض فى حجمه وجرمه ، وهو افتراض لا تعززه طبائع الامور . فانا نعرف ان الجاذبية على سطح القمر أقل منها على سطح الأرض ، فهى تبلغ نحو الثمن ، فالرجل منا اذا نط على سطح القمر ارتفع الى نحو ثمانية أمثال ارتفاعه على سطح الأرض فمن اجل اتزانه يرجح أن يكون جرمه ثمانية أمثال جرمه على الأرض . وحكم مساكن الانسان على القمر كحكمه ، فهى إن كانت فلابد أن تكون كبيرة ضخمة لتتوافق مع ساكن ضخم كبير ولتثقل فتتزن على سطح القمر فلا تندك من اهتزاز قليل . والمنازل الواسعة تؤلف لاشك مدناً كبيرة مديدة أكبر من مدن الأرض وهذا يسهل علينا مرآها ، ولكننا لم نر شيئا .

على أن كل الادلة تقضى بخلو القمر من الماء ومن الهواء ، وكلاهما لازم للحياة علت أو سفلت . والحياة كما نعرفها لاتكون الا فى درجات من الحرارة محدودة ، فهى لا تزيد كثيرا على الخمسين ، ولا تنزل كثيرا عن الصفر ، والمعروف عن القمر أن نهاره بخمسة عشر يوما من أيامنا ، يظلُّ فيه فى مواجهة الشمس يأخذ من حرارتها فتعدو درجته المائة ، يتلوه ليل بخمسة عشر يوما من ايامنا يبرد فيه برودة دون ماتحتمله الحياة بكثير . فالحياة ـ كما نعرفها ـ لم يثبت وجودها على القمر ، لاعيانا ولا استنتاجا ، بل ثبت النقيض ؟

احمد زكى

القصص

البلبـــل والزهرة

لأسكار ويلد

ترجمة الاستاذ محمود الخفيف

صاح الطالب الشاب قائلا « وعدت أنها سوف تراقصنى إن أنا أحضرت لها وردا أحمر ، ولكن ليس فى حديقتى كلها وردة حمراء » .

فسمعه البلبل وهو فى عشه على شجرة السنديان وتطلع اليه فى دهشة من خلال الأوراق وأردف الفتى قائلا وقد اغرورقت بالدمع عيناه الجميلتان « لن توجد وردة حمراء فى حديقتى كلها ! آه . كم تكون السعادة رهينة بأتفه الأمور ! لقد قرأت كل ما كتبه العقـــلاء ووقفت على أسرار الفلسفة ومع ذلك أرى حياتى يكتنفها الشقاء من أجل وردة حمراء » !

وعندئذ قال البلبل « ها قد لقينا فى النهاية محبا صادقا . لقد طالما تغنيت بذكره الليلة تلو الليلة ولو لم أكن أعرفه . ولقد طالما تحدثت عنه الى النجوم . وهأنذا أراه الآن ! إن شعره فاحم كزهرة الخزامى وان شفتيه لتمتلان فى حمرتهما الوردة التى يطلب ، ولكن تواجده قد أحال لون وجهه الى لون العاج المصفار ، كما أن الأسى قد ترك طابعه فوق جبينه » .

وتمتم الطالب قائلا « سوف يقيم الامير حفلا مساء غد وستكون عشيقتى هناك ، فان أنا أحضرت لها وردة حمراء فانها ستراقصنى حتى مطلع الفجر ، وسوف تسند رأسها الى كتفى ، وتضع يدها فى قبضة يدى . ولكن ليس فى حديقتى وردة حمراء ، واذا فسوف أنزوى وحيدا ، وستمر بى عشيقتى فلا تأبه لى ، واذ ذاك يتحطم قلبى ! » .

وعاد البلبل الى حديثه قائلا « ها هو ذا محب وفى حقا ! انه يشقى بما أترنم أنا به ، وان هذا الذى يعد مبعث الجذل عندى أراه عنده مبعث الهم والألم . حقا ان الحب لشىء عجيب ! انه أغلى ثمنا من الزمرد ، وأندر من تلك الجواهر المعروفة بعين الهر ، ولا يمكن أن يقوم باللآلى ، كما انه لن يعرض فى الاسواق ، ولن يوجد عند تاجر أو يوزن فى ميزان الذهب » .

وقال الفتى « سوف تجلس جوقة الموسيقى فى البهو ، وسوف يعزف أفرادها على آلاتهم ، وعندئذ سوف ترقص عشيقتى على نغمات العود والقيثار ، وسترقص فى خفة حتى لن تمس قدماها الارض ، وسيجتمع حولها رجال الحاشية فى ثيابهم الزاهية . أما أنا فانها لن تراقصنى ، فليس لدى وردة حمراء أقدمها اليها » ، وعندئذ القى الفتى بنفسه على العشب وغطى وجهه براحتيه واستسلم للبكاء .

فتساءلت حرباء خضراء ، كانت تجرى الى جواره رافعة ذيلها فى الهواء « ما الذى يبكى هذا الشاب ، ؟ وشاركها فى تساؤلها فراش كان يرف فى شعاع الشمس . حقا ما ذا يبكيه ؟ » وأعقبتهما أقحوانة ، فهمست الى جارتها فى صوت خافت ناعم قائلة « فيم هذا البكاء » ؟

وأجاب البلبل قائلا « انه يبكى من أجل وردة حمراء »

فصاح الجميع فى دهشة « من أجل وردة حمراء ؟! . ياله من أمر مضحك ، وصاحت الحرباء الصغيرة ضاحكة منه وفى عينيها معانى التهكم .

ولكن البلبل كان يفهم سر هذا الحزن فجلس صامتا على شجرة السنديان مفكرا فى الحب وما يكتنفه من أسرار .

وبينما كان غارقا فى تفكيره ، اذ بدا له فنشر أجنحته ذات اللون البنى ، وارتفع فى الهواء ، وعبر الحديقة كما يعبر الطيف حتى وقع بصره على شجرة ورد جميلة ، فحط على غصن من غصونها ، وصاح بها قائلا

« أعطنى وردة حمراء فأغنيك أحسن أغانى »

ولكن الشجرة هزت رأسها قائلة « إن وردى كله أبيض كزبد الموج فى بياضه أو هو أشـــد بياضا من الثلج الذى يكلل

قنن الجبال . اذهب الى أختى هنالك حول المزولة وستعطيك ما تطلب »

وطار البلبل حتى أتى تلك الشجرة فصاح بها

« أعطنى وردة حمراء فاغنيك أحسن أغانى »

ولكن الشجرة هزت رأسها قائلة « ان ورودى كلها صفراء ، تحكى فى صفرتها شعر الجنية التى تجلس على عرشها الكهرمانى ، أو هى أشد صفرة من زهرة النرجس التى يسطع لونها فى المرعى قبل أن يأخذها المنجل . ولكن اذهب الى اختى هنالك تحت نافذة الطالب ، وربما منحتك طلبتك ، فانطلق البلبل الى تلك الشجرة مخاطبها بقوله :

أعطنى وردة حمراء فاغنيك أحسن أغانى .

فهزت الشجرة رأسها قائلة «إن ورودى حمراء ، كقدم الحمامة فى حمرتها ، أو هى أشد حمرة من مراوح المرجان الهائلة التى تتماوج فى جوف الخضم ، ولكن الشتاء جمد عروقى ، والصقيع نثر براعمى ، والعاصفة قصفت غصونى ، ولذلك فسوف لا ألد وردة هذا العام »

فقال البلبل « ان كل ما أطلبه وردة حمراء واحدة ، وردة واحدة فقط . أو ليس من سبيل الى تلك الوردة » ؟

واجابته الشجرة قائلة «هناك وسيلة الى مبتغاك ، ولكنها جد مخيفة حتى انى لاأقوى على ذكرها » .

ولكن البلبل رد بقوله « هات ماعندك فلن أخاف شيئا »

وحينئذ قالت الشجرة « اذا كنت تريد وردة حمراء فعليك أن تبنيها بألحانك فى ضوء القمر ثم تفرغ عليها دم قلبك . عليك أن تغنينى ، وصدرك مسند الى شوكة من أشواكى ، وعليك أن تقطع الليل كله صادحا على أن تدع الشوكة تنفذ الى قلبك حتى يتدفق دم حياتك فى عروقى ويصبح لى »

وصاح البلبل قائلا « كثير أن أقدم حياتى ثمنا لوردة حمراء ، وحياة كل مخلوق غالية عنده . لشد ما يبهجنى أن أجلس فى الغابة الخضراء وأرقب الشمس تجرى فى مركبها الذهبى ، والقمر فى مخدعه اللؤلؤى . ماأجمل منظر الزهور فى عدوتى الوادى وعلى سفوح التلال ، وما ألذ النسيم ينشر فى الجو عطره الفياح . على أن الحب أحسن من الحياة ، وما قيمة قلب طائر اذا قورن بقلب رجل » ؟

ونشر البلبل أجنحته البنية وارتفع فى الجو وعبر الحديقة كما يعبر الطيف ، حتى أتى الطالب فوجده حيث تركه لما يزل مستلقيا على العشب ، ولم تجف الدموع فى عينيه الجميلتين ، فوجه اليه الخطاب قائلا : (ابشر ايها الفتى ولا تحزن فسآتيك بالوردة الحمراء . سوف أبنيها بأغانى ضوء القمر ، وسوف أصبغها بدماء قلبى ، وكل ما أطلبه منك فى نظير ذلك أن تظل وفيا فى حبك ، فان الحب اكبر عقلا من « الفلسفة ، وان اشتهرت بالحكمة ، وأشد سلطانا من القوة وإن اشتهرت بالبأس . ان أجنحته حمراء كاللهب ، وان جسده مشبع الصبغة من ذلك اللون المتوهج ، أما شفتاه فحلوتان كالشهد ، وأما أنفاسه فعطرات كالعنبر المتضوع .

ورفع الطالب رأسه مصغيا ولكنه لم يفهم ما قاله البلبل لأنه لا يفهم الا ما يقرأ على صفحات الكتب .

ولكن شجرة السنديان فهمت ما أعيا الطالب فهمه ، فاشتد حزنها لأنها كانت تحب هذا البلبل الصغير الذى بنى عشه فى أحضانها ، ثم توسلت اليه أن يغنيها أغنيته الأخيرة قائلة إنها سوف تعانى آلام الوحشة والعزلة لفقده .

فغناها البلبل أشجى ألحانه ، وكان صوته العذب كصوت الماء ينصب من إبريق فضى ، ولما فرغ البلبل من غنائه نهض الطالب وقد أخرج من جيبه ورقا وقلما وحدث نفسه وهو يسير فى ممرات الحديقة قائلا

« أما ان لهذا البلبل طريقة فى لحنه فهذا مالاسبيل الى انكاره ، ولكن ليت شعرى هل يصحب هذا اللحن شعور ؟ أخشى أن يكون هذا الشعور معدوماً ، واذا رجعت الى الحقيقة فهو كمعظم الفنانين . إن له أسلوبا ولكنه ينقصه الاخلاص لفنه . وانه لن يضحى بنفسه من أجل الغير . ولن يفكر الا فى الموسيقى ، وكل انسان يعلم أن الفن والأنانية صنوان ، وعلى أى حال فلن أستطيع أن أنكر عليه الحانا جميلة فى صوته ، ولكنها مع الأسف لا روح فيها وليس ثمة أية فائدة من ورائها » .

ودخل الفتى حجرته واضطجع على سريره مفكراً فى حبه وبعد هنيهة ظلله الكرى بجناحيه .

ولما أضاء البدر فى السماء طار البلبل الى شجرة الورد ، وأسند صدره الى الشوكة وجعل يغنى طول ليله والشوكة تنفذ فى صدره رويداً رويداً . حتى تدفق الدم من عروقه والبدر ينصت اليه فى هدوء .

غنى البلبل أولا عن الحب وكيف يولد فى قلب كل صبى وصبية ، وعند ذلك أسفرت وردة بديعة فى أعلى أغصان الشجرة ، وكانت تزداد ورقة فى إثر ورقة كما كان يرسل البلبل الحانه لحنا فى اثر لحن . وكان لونها أول الأمر شاحبا كلون الضباب الذى يطفو على صفحة النهر ، أو كقدم الصبح اذا تقدم يسعى ، أو كجناحى الفجر عند طلوعه ، كان كلامه خيال الزهرة فى مرآة فضية ، أو فى صفحة بركة ساكنة . ولكن الشجرة أهابت بالبلبل أن يضغط بصدره على رأس الشوكة قائلة : « أقبل بصدرك على الشوكة أكثر مما تفعل أيها البلبل الصغير والا أسفر الصبح ولما تتم الوردة .

وأطاع البلبل فاشتد ضغطه على الشوكة ، وكانت ألحانه تعلو شيئا فشيئا اذ أخذ يغنى عن العاطفة ، وكيف تنشأ فى نفوس الفتيان والأوانس . وهنا تمشت حمرة خفيفة فى الوردة ، حمرة أشبه بتلك التى تصبغ وجنة العروس عندما يطبع أول قبلة على شفتى عروسه ! ولكن الشوكة لم تكن حينذاك قد وصلت الى قلبه ، فبقى قلب الوردة أبيض ، فلن يصبغه بالحمرة الا الدم المنبعث من صميم قلب البلبل ولذلك صاحت الشجرة بالبلبل قائلة : أقبل بصدرك على الشوكة أيها البلبل الصغير والا طلع النهار ولما تتم وردتك » .

وزاد البلبل الشوكة ضغطا حتى مست قلبه فاشتد ألمه ، وكان غناؤه يزداد ارتفاعا كلما اشتدت حدة الألم ، كانت ألحانه تتجه اتجاها غير متزن ، اذ كان حينذاك يغنى عن الحب كيف يصل به الموت الى الكمال وكيف يضمه القبر ، فلا سبيل الى تغيره فى هذا المثوى الاخير .

وهكذا اكتست الوردة لونا قرمزيا ، سرى فى جميع اجزائها ، وكان صوت البلبل المسكين يتضاءل ، وكانت أجنحته ترف وقد مرت غشاوة امام بصره حتى وصل لحنه الى صوت خافت وأحس بحشرجة فى حنجرته .

وأطلق البلبل آخر نغماته فسمعها القمر الوضىء ، فنسى مطلع الفجر وتلكأ فى صفحة السماء ، وسمعته الوردة الحمراء فاهتزت اهتزاز الغبطة ، وفتحت أوراقها لنسيم الصباح ، وحمل الصدى هذا اللحن الى الكهف القائم على سفح التل فبدد أحلام الرعاة وأيقظهم من سباتهم ، ثم سبح هذا اللحن خلال اليراع المتمايل على ضفة النهر ومن ثم اتخذ سبيله الى البحر .

وخاطبت الشجرة البلبل قائلة ، هاهى ذى الزهرة قد تمت ، انظر بعينك اليها ما أجملها ، ولكن البلبل لم يجب فقد لفظ انفاسه وسقط جثة هامدة بين الحشائش ، والزهرة مغموسة فى صدره .

وعند الظهيرة فتح الطالب نافذته والتى ببصره الى الحديقة فصاح قائلا « ياله من حظ سعيد هاهى ذى وردة حمراء . لعمرى ما رأيت وردة كهذه فى حياتى . ان جمالها ليميل بى الى الاعتقاد بأنه لابد أن يكون لتلك الوردة اسم لاتينى طويل » ثم ذهب اليها فقطفها .

ولبس الفتى قبعته ، وجرى الى بيت الاستاذ والوردة فى يده وكانت ابنة الاستاذ جالسة لدى الباب تلف خيوطا من الحرير الأزرق وكلبها الصغير نائم عند قدميها فخاطبها الفتى قائلا :

« لقد وعدت أنك سوف تراقصينى اذا أحضرت لك وردة حمراء ، انظرى الى هذه الوردة انها أشد الورود فى العالم حمرة سوف تضعينها هذه الليلة على صدرك فى موضع قلبك ، وعندما ندور معاً فى رقصتنا ستحدثك هذه الورة عن مبلغ حبى لك »

ولكن الفتاة عبست قليلا ثم قالت

« أخشى ألا يلائم لونها لون ملابسى ، وزيادة على ذلك فقد أرسل الى ابن أخى رئيس الحجاب بعض الحلى الثمينة وأظنك تعرف أن الحلى أغلى من الزهور » .

وصاح الفتى مغضباً :

« لعمرى انك ناكرة للجميل » . ثم رمى بالزهرة فى الشارع فمرت فوقها عجلة فتلاشت وأجابت الفتاة

« ناكرة للجميل » ؟ يالك من فظ ! ولكن قبل كل شىء خبرنى من أنت ؟ انك أنت الا طالب فحسب ، وما أظنك قد اتخذت يوما رباط حذائك من فضة كما فعل ابن اخى رئيس الحجاب ، ثم نهضت واقفة ودخلت المنزل .

وقال الطالب وهو يبتعد عن دارها ، ما أسخف الحب ، اين هو من المنطق وفوائده ؟ إنه لن يحقق شيئا ما ، ولن يحدثنا الا عما لا يمكن حدوثه ، وزيادة على ذلك فهو يجعل المرء يعتقد فى أشياء لا ظل لها من الحقيقة ، إنه فى الواقع أمر غير عملى ، وما دامت النزعة العملية هى كل شىء فى هذا العصر ، فانى سوف اتجه ثانية الى الفلسفة وأدرس العلوم العقلية .

وعلى ذلك اتجه الى حجرته وتناول كتابا كبيرا قد علاه التراب ، ففتحه وانكب عليه قارئا .

محمود الخفيف

النقد

حول الينبوع أيضا

الى الدكتور احمد زكى ابى شادى

أما أنا ، فانى أرى اللجاجة ليست تفيد ، وما كان مثلى يبغى التغرض ، وما كان مثلى يهوى التسرع ، وانما صح ما توقعت ووقعت الواقعة ، واذا أنا أعود فأردد مرة أخرى ، ما عرفت الدكتور واضرابه من إخواننا المصريين ، الا أباة على النقد ، يثيرون من أجله المعارك ، ويتسارعون بسببه الى الخصام والنزاع ،

فأنا أغتفر للشاعر حدته فى الرد ، لان الشاعر أنانى بطبعه يأبى أن يستخف له الناس أثره ، ويكره من يبخس شيئا من قدره ، وأشكر له حسن ظنه بى ، ولا أبغى تسجيل هذه الكلمة عليه ، ثم أضرب صفحا عن الماضى بأجمعه ، وأعيد النظر فى ينبوعه من جديد ، وأؤكد له أننى قرأته مرة ثانية ، وأؤكد له اننى حاولت أن أفهم ، وأعوذ بالله أن أزعم ان نفسه قد حلت فى جسمى ، فلست أعتقد بالحلول . ولا أزعم أن عواطفى قد اصطبغت بلون عواطفه فهذا أمر يعرف استحالته من الوجهة البسيكولوجية ، وأسأله العفو والمغفرة ان كفرت بقوله

كن انت نفسى واقترن بعواطفى تجد المعيب لدى غير معيب

ا افراط فى أنانية الشاعر ، إذ كيف يعقل أن يتشابه الناس تماما فى المادة وفى الروح . وما تشابهوا ، لكن الشىء الممكن الذى أستطيع القيام به ، هو أننى حاولت أن أوجد التجاوب الروحى بين نفسه وبين نفسى ، مع أنى لم أحاول أن أخلق مثل هـذا التجاوب من قبل ، فابن الرومى مثلا ، لا يوجد أقل تجاوب روحى بين نفسه وبين نفسى ، ولكننى معجب به لا لأنه يضرب على الوتر الحساس من قلبى ، ولا لانه يهيج دفين آلامى وأشجانى ، بل لانى أجد فى شعره فنا رائعا لا أستطيع انكاره وبخسه . ولأضرب للدكتور مثلا آخر هو فيكتور هوجو Hugo فانا أرى فى شعره رأيا يخالف رأيى فى ابن الرومى وربما كانت نفسه أقرب الى نفسى من نفس بودلير Baudelaire CR ، الذى أعجب به اعجابا شديدا .

فليس من الحتم على قارىء الشعر ألا يستسيغ الا الشعر الذى تشابهت فيه نفسه مع نفس الشاعر ، فقد يحب وقد يكره ، ولكن هناك الفن الشعرى ، وهو الجامعة التى تؤلف بين القلوب ، وتوحد بين الافئدة ، وما أظن فى الناس الا الحمقى يهزون أكتافهم اذا قرىء لهم شىء من الشعر الخالد الذى يتسم بصفات الفن الرائع ، ولو كان يخالف نظرتهم وفطرتهم :

إن من عادتى ياسيدى الدكتور أن أعمد الى الافكار التى تكون طراز تفكيرى ، والمبادىء التى أستند اليها فى تقديرى ، فاتناولها بين آونة وأخرى بالبحث والمراقبة والتشريح أبتر ضعيفها ، وأنعش هزيلها . وأنشط قويها . قلت . . . ربما كان رأيى فى شعر أبى شادى من القبيل الضعيف . فلأعد النظر وأؤكد للدكتور انى كنت قاسيا على نفسى حتى يرضى .

فاللهم جنبنى الشبهات ، وسدد سبيلى ، وحبب الى الحق لأتبعه ، ووجه روحى الى النور لأدرك كنه صفحات الحياة التى تلوح لعينى كروح فى ثوب صفيق من المادة . فاذا ابصرت بها واستهوتنى اندفعت بكل مافى نفسى من جموح ، لادرك سر تلك الروح .

الشعر مادة وروح ، وشعر أبى شادى كذلك . فما هى المادة التى تتمثل فى شعره ؟ لاشك أنها اللغة ، واللغة كما أعلم وتعلم هى الأداة المادية التى تشرح دخيلة الروح . ومع أن الدكتور قد جزم بأنى لست ممن يصلحون لنقد لغة شعره وقد استحسنها من قبل أستاذ كمصطفى جواد وغيره . ! ! فأنا اسير من حيث بدأت ، فليست القضية قضية نحو وصرف وبيان وبديع ، بل قضية ذوق شعرى ولغة شعرية . واذا شئت فقل قضية فنية بحتة ، ويحسن بأولئك المدرسين Classiqwe أن يتركوا الساحة قليلا ، ويريحوا الناس من الاعراب والبناء التقدير ، فهذا أمر تافه يدركه صبية المدارس ، وقد أفنى الاقدمون فيه كثيرا من الوقت والجهد ، وقد جاء هؤلاء فى آخر القافلة

أقع بنظرى على قصيدته التى أراد أن يفحمنى بها ، والتى أراد أن يبهر بها الناس فاقرأ :

نرى فى البر الوان التناجى   وفى البحر المشارف والعميق

أو قوله :

كأن الحسن ذاب بكل لون   نراه وفى المياه وفى الطريق

اللهم انى كافر بالشعر ان كان هذا من الشعر ، و كافر بأقوال مطران ان كان قد استحسن هذا القول مطران ، وكافر بالأدب ان كان فى رجال الأدب من يستسيغ هذا ويعجب به

أؤكد للدكتور أنى غير موفق فى انتقاء ماينتقد . لكننى استعرض هذا وأمثاله . وقد يرى فيه مصطفى جواد أو غير مصطفى جواد منتهى الاجادة والبلاغة : أما أنا ، أنا الشاك الذى لم يتكامل التجاوب الروحى بين نفسه وبين نفس أبى شادى ، انا الذى اسجل خطرات تشمئز منها نفس أبى شادى ، ما أزال أرى بالأسف فى هذا الشعر وأضرابه ضعفا شديداً . أرى فيه لغة صحفية ليست لغة فن ولا شعر ، أرى الاعياء الذى ما بعده اعياء فى التصوير والتعبير ! وتبدو لعينى فكرتى التى بسطتها عن لغة الشعر التى اقول فيها . انا افهم ان الشعر هو التعبير الراقى عن احساسات النفس ، (وما كل احساس يصلح ان يكون شعراً بل الاحساس العلوى أقصد) .

وعلى هذا الشكل فهم العرب الشعر . فقالوا عن القرآن اذ سمعوه انه شعر .

ان فى اللغة الشعرية سحراً وروعة وفنوناً وموسيقى ونغمات صوتية Consonance تراها فى شعر امرىء القيس كقوله :

مكر مفر مقبل مدبر معاً   كجلمود صخر حطه السيل من عل

وتراها فى شعر عنترة ، اوعمرو بن كلثوم ، وفى الشعر الغربى ما اكثرها فى شعر (ادكار پو Edgar Poe) او فى شعر (بودلير Ch. Baudelaire) او فى شعر (فاليرى Valery) . وما كل كلام مفهوم بشعر ، ولا يكفى الشاعر ان يميز بين المنصوب والمرفوع ، وليس يكفى ان يعرف الشاعر البحر البسيط او الطويل او الرجز ، كل هذه قشور لابد منها ولا اهمية كبرى لها لبساطتها ، انما بيت القصيد فى تلك الروعة وذلك السحر ، او فى توقيع الموسيقى ، وفى تلاؤم تلك النغمات الصوتية ، وما فى شعر ابى شادى شىء من هذا .

. . . لغة الجرائد يادكتور تعبر عن كثير من الآراء الصائبة والاخيلة الرائعة ، ولكنها تفعل فعلها فى وقتها ثم تنطوى تحت ذيل الزمن وتموت ، وما كان للشعر ان يكون مثلها ، إنك لاتستطيع أن ترى فى لغة الصحف روعة وسحرا الا نادرا أو إنك لاتزعم أن فيها فنا أخاذا . أما شعرك يا دكتور فهو شعر عربى فى كلماته صحفى فى فنه وتعبيره ، كانى بك تذكر حكاية ذلك الاعرابى الذى دخل إحدى الحواضر فسمع أهلها يتكلمون فما فهم شيئا . انهم يقولون كلاما عربيا ما فى ذلك شك . لكن أسلوب التعبير غير عربى ، وكلامك يادكتور فى شعرك لا يصطدم مع الفاعل ونائبه والصفة والتشبيه الا نادراً ، وجل من لا يسهو ، عربى فى الفاظه مفهوم فى عسر أو فى يسر ، لكن أين الفن الراقى فى التعبير فى مثل قولك ؟

هذه الدنيا لاحلام الاديب   هذه غايات آمال الأريب ؟

أظن أن صاحب الملل والنحل لو امتد به الأجل ما قال قولته المشهورة (هذا شىء لا يعجز عنه انسان) الا فى شعر يشابه شعرك . لاعجب ياصاحبى هذا شان البحر ، فالبحر لا يقذف بالدر دائما ، ولكنه يقذف بالزبد فى كل حركة ، والانتاج الفنى الذى هو التعبير الراقى عن احساسات النفس لا يأتى عفو الخاطر ، فاذا تحدثت الى سيدى الشاعر عن اللغة افلا يجدر بى أن أحدثه عن روح الشعر وعن المناسبة الشعرية . وعن الظروف التى تستدعى قرض الشعر .

لا أكتمك يادكتور انى ممن يلقون بنفسهم بينكم معشر الشعراء ، فى المتن أو فى الهامش ، لا أدرى ، لكنى من جماعتكم على كل حال شئتم أو أبيتم ، وما أكثر أمثالى بين الشعراء ، يكاد أحدهم يبعد عن محراق الفلك الشعرى زهاء مائة كيلو متر ، ويزعم بعد ذلك أنه من كبار الشعراء . أعذرنى فانا أنانى مثلك ، وانا عند ما احدثك عن أنانيتى يجدر بى أن أشرح لك شيئا من ذات نفسى كشاعر لا كنا قد . . . الموضوعات التى تستدعينى الى النظم كثيرة يا دكتور ، ونفسى دائمة الاضطراب والجموح . دائمة الحركة والثورة ، هى متمردة متقلبة ، ترى فى كل ساعة موضوعا للكتابة ، لكننى أكبح جماحها . أحول هذا الشعور الحاد الى اللاشعور ليتم نضجه ، فاذا فرغت منه انصرفت الى غيره ، ففعلت به ما فعلت بالأول ، وانا بين هذا وذاك أمزج بين الشعور الهادىء المتزن وبين الشعور الحاد الجامح ثم اكتب . وبعد ان أنهى عملى ادفعه واهمله ، واشعر ان عبئا قد ازيح عن كاهلى ، أقبره لأنه لم ينضج ،

تمر عليه ايام كثيرة أتناوله فيها بالتبديل والتغيير والمسخ ، او بالتهذيب والترتيب والتنسيق ، ولعلى ما اتممت شيئا حتى الآن ، فترضى عنه نفسى ، وكيف أشرح نفسى للناس ، وهم اجهل من ان يفهموها على وجهها ، وكيف أبرز للناس وما انا ممن يستطيعون التعبير عن مصائبهم وآلامهم وثورتهم ، حسبى أنى لم أعرض شعورى فكيف اعبر عن مشاعر الناس ، انهم يطلبون رعداً وبرقا ، وهم على حق فيما يطلبون ، فهناك وطن يقتسم ، وهناك بلاد يحتلها العدو والغريب ، وهناك شرف صار الى الرغام ، وهناك مجد قد أفل ، وهناك مجد الأمس وبؤس اليوم ، وتاج الاجداد ، وقبر الاحفاد ، وحق للشاعر ان يرعد ويبرق ، وان يدفع الغمام الساجى المدلهم ليمطر ، أما أنا فانى سائر فى طريقى ، وأرجو أن أصل الى ما اصبو اليه ، سأرعد وسأبرق ، وسأنفخ فى الرمم وسأصيح بالموتى ولكن ... ليس الآن ، عندما تهدأ نفسى من جنون الشباب ، عند ما يأخذ قلبى فى النظر العام الشامل ، فى ذلك الوقت استطيع أن ارضى نفسى وأرضى غيرى ، أما الآن فلا . وإن الجمهور ليطلب الى الشاعر بكاء ونواحا ، ويحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ما أكثر شعراء البكاء فى بلادنا ، أما أنا فلم يبق فى عينى دمع انضح به شهوات الناس . انى غدوت كشبح متحرك يراه الناس فيحسبون فيه القوة والجبروت ، وأبصره أنا على وجه لا يرونه به . ماذا تبقى ياصاحبى ، انتى أرى الناس ، بل كثرة الشعراء فى واد ، وانا فى واد ، إنهم يتكلمون عن السماء وانا اتكلم عن الارض ، انهم يتكلمون عن العالم باسره ، وانا لا اتكلم الا عن (حديقتى) . فاذا شعرت بهذا انصرفت الى ألغازى التى حبرتها ، وأوهامى التى نسجتها وصبغتها بألوان الجمال والقوة والحكمة ، فتعيننى فى بلواى ، بل كيف اقذف بها الى الناس . وهيهات أن تلذ الناس ، ما انا طامع فى رضاهم ، ولا انا خائف من شرهم ، خير لى أن أعيش فى حديقتى ، أبذر وأقبر وأنتج وأقتل ، حتى لا تستطيع اليد قتلا ، وحتى تضعف اليد عن حفر القبور .

أرأيت يادكتور كيف أبعد عن الغرض الذى اسعى اليه ، بل أرأيت كيف أسرف فى الشطط . فقد ارهقتك وأرهقت القراء بهذر من القول لا طائل تحته ، وانما هى اقوال تلوح لذهنى فاعلق بها على الرؤى التى تلوح لعينى ، ما كان اجدرنى يادكتور الا اكتب والا اثير حفيظتك والا اضطر نفسى الى الجواب ، ربما كنت بعيدا كل البعد عن مذهبى فى الشعر ، فأنت تنحو فى شعرك ناحية تسميها انسانية عالمية ، وانا أرى أن الحياة قبل التفلسف ، وعلينا أن نعمل للسير قبل الكمال ، وأن نعمل للحياة قبل الجمال ، وان نعمل للحركة قبل الفن - ان صح أن هناك فنا - وأن على الشعراء واجبا نحو وطنهم وأمتهم ، بل إن عليهم واجباً نحو انفسهم ، ماذا تستطيع النفس المقيدة الملجمة أن تنتج ، ربما فهمت قولى يادكتور واولته على انى معك على مذهبك . كلا : فانا لا ارى الشعر كتاريخ لنفس الانسان : إننى ارى ان الشعر لا يرسم الا الخطوط الأساسية من نفس الانسانية جمعاء ، وبقية الفنون والعلوم تلبس هذه الخطوط أثوابا فضفاضة من المادة والروح .

إننى استغفر الله يادكتور ، فما أردت سوءاً ، وما كنت مغرضا ولا ناقما ، لكننى من خدام الحقيقة . اريد أن اقبس من نورها ولو نالنى من الناس ما اكره ، أنا لا أريد أن أبنى لنفسى ذكراً على أشلاء الناس ، ولكنى أبحث عن ضالتى المنشودة على اننى شاكر لك أن اتحت لى الانطلاق من جمود ميت ، ومن حيرة قتالة كنت أعيش فى ظلامهما .

اننى اتسلى لا اكثر ولا اقل ، اننى أثير الغبار وسنرى ما ينجلى تحت الغبار .

حلب « المرتينى »

لجنة التأليف والترجمة والنشر

أخرجت لجنة التأليف والترجمة والنشر القسم الاول من كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » لتقى الدين المقريزى . وقد قام على تصحيحه ووضع حواشيه الدكتور محمد مصطفى زياده المدرس بقسم التاريخ بكلية الآداب بالجامعة المصرية .

ويقع هذا القسم فى نحو ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير . ولا حاجة للتعريف بأهمية هذا المؤلف الكبير فان المقريزى ضمنه معلومات وحقائق عن دولتى الأيوبيين والمماليك بمصر قل أن توجد فى غيره من الكتب المخطوطة والمطبوعة

وقد طبع أجود طبع فى مطبعة دار الكتب على أجود ورق وثمنه ١٥ قرشا عدا أجرة البريد

ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الكرداسى رقم ٩ بجوار سراى شريف باشا ومن المكاتب الشهيرة

الخيال الطارق

بقية المنشور على صفحة ٨٠٤

قبل أن يهجم ضوء النهار فيبدد ظلمة الليل ، وانى لحريصة على أن القاك ، فان كان لقائى يرضيك الآن كما كان يرضيك من قبل ، فانتهز فرصة كهذه الفرصة ، فى ساعة كهذه الساعة ، وانظر فى هذا الكتاب وأطل التفكير فيه ، فقد أستجيب لدعائك حينئذ . ثم سكت هذا الصوت قليلا ، واستأنف حديثه الحلو المر فقال : ليس السل وحده هو الذى قتلنى ، وانما قتلنى معه الحب ايضا ، فقد تذكر أن زوجى فارقنى قبل ان أموت بأشهر ، لأن مرضى المتصل قد ثقل عليه ، وقد تذكر انى كنت أظهر تجلدا وعزاء ، وقد تعلم أنى كنت اخفى من ذلك غير ما اضمر ، وانك كنت تشفق على مما كنت أخفيه . وكنت تود لو استطعت ان تسلينى عن بعض ما اجد ، فاعلم الآن انى حين ثقلت على العلة ، وتورمت اطرافى ، ورأى الطبيب ان ينزع ذلك الخاتم الذى كان آخر ما بقى لى من زوجى ، لم اشك فى انه سينزع معه الحياة من هذا الجسم المريض ، ولم اكره ذلك ، وأى بأس من مفارقة العلة واليأس . فأبلغ زوجى أنى فارقت الحياة وانا أحبه ، وان مقامى فى هذه الارض بعد الموت لن يطول ، وأنه خليق ان يعلم انى أراه وارافقه ، وأنه خليق أن يرعى ذلك وان يذكرنى فى شىء من الخير والرفق والوفاء ، حتى اذا آن لهذا الخيال ان يصعد فى طبقات الجو وان يمضى الى ذلك العالم الذى تعيش فيه خيالات الموتى ، وان تنقطع الصلة بينه وبين هذه الارض ، فلزوجى أن ينسى ، ولزوجى أن يقطع مابين نفسه وبينى من الاسباب . قالت ذلك ثم نظرت الى نظرة قوية حادة ، لم استطع ان أثبت لها ، وإنما أطرقت برأسى الى الارض خائفا وجلا . ثم رفعت رأسى بعد ذلك ونظرت فلم أر شيئا ، وتسمعت فلم انتبه الى صوت وانما هى رسالة الغفران مبسوطة أمامى أرى فيها عبث ابى العلاء حول شعر النمر بن تولب . هنالك أخذنى هلع ما أعرف انى احسست مثله من قبل ، وملكنى روع كاد يدفعنى الى الصياح لولا بقية من عقل ، وفضل من حياء ، ففارقت غرفتى وهبطت الى الحديقة أهيم فيها انتظر مطلع النهار ، حتى اذا ارتفعت الشمس قليلا أوصيت أهلى بما أوصيت واسرعت اليك . أترى بعد ذلك ان سخف أبى العلاء لم يسؤ أحدا ؟ قال ذلك ثم أخذته رعدة غريبة اشفقت أن ترده الى مثل ما كان عليه من الوجل والاضطراب ، فما زلت به حتى رددت اليه الامن والهدوء . وقلت مداعبا : ويحك ! ألم تقرأ كتاب أناطول فرانس ذلك الذى سماه جريمة سلسفتر بونار ؟ إن فيه قصة ان لم تكن تشبه قصتك هذه من كل وجه ، فانها قريبة منها الى حد ما ، وما أرى الا انك قد ذكرت صاحبتك هذه فى ضوء النهار أو فى ظلمة الليل ، حتى اذا أخذت تنظر فى كتابك اخذك هذا النوم الخفيف الذى تتراءى فيه الأشباح والخيالات . قال مغضبا : اقسم لك ما كنت نائما ولا قريبا من النائم ، وإنما كنت يقظان أشد ما يكون الناس يقظة وانتباها ، ولكن ما نفع الحديث معك فى هذا وأنت لا تؤمن بعالم الخيال . قلت : فانى أشفق عليك من ايمانك هذا فقد تستطيع أن تتحول عن دارك ، وان تفارق القاهرة ، وأن تنزل من الارض أى منزل شئت ، فسيتراءى لك هذا الخيال كلما خطر له أن يتحدث اليك ، أو أن يحملك رسالة الى الاحياء . وماذا تريد الآن أن تصنع برسالته هذه ؟ أتحملها الى من أنت مكلف أن تحملها اليه أم تكتمها ؟ فان تكن الاولى فماذا تصنع إن لقيك باللوم لانك تعرض لما لا ينبغى لك أن تدخل فيه ، وان تكن الثانية فماذا تصنع إن ألم بك الخيال وسألك عن تبليغ الرسالة وتأدية الأمانة والوفاء بالعهد ؟ هنالك نهض صاحبى مغاضبا وهو يقول : ما أشد بغضى للذين يمزحون فى غير أوقات المزاح . ثم انصرف عنى وانا شديد الاشفاق عليه وعلى كثير من امثاله الذين تطرقهم هذه الخيالات فتملأ قلوب بعضهم أمنا ورضى ، وتملأ قلوب بعضهم الآخر خوفا وروعا .

طه حسين